الباب الثانى

الفِكْرُ المتجَدِّد

obeikandl.com

obeikandl.com

الفكر المتجدد

عاد الشرق الاسلامى فأخذ مكانه فى شبكة المواصلات العالمية ونزل ميدان التجارة الدولية بعد أن ظل منطويا على نفسه قرونا عدة ، انقطعت خلالها أسباب اتصاله بالعالم الخارجى ، ولم تكن عودة الحيـاة الى خطوط المواصلات وتنشيط التجـارة نتيجة لعوامل ذاتيـة فى الشرق الاسلامى ، بل حركتها قوى ذات اهتمامات بعيدة المدى حملت معها خططا استعمارية اقتضت عودة الحيـاة الى خطوط المواصلات القديمة • هذه القوى قطعت شوطا طويلا فى طريق الحضارة وارتفعت على سلم المدنية درجات أكسبتها تفوقا واستعلاء على غيرها •

واستئناف فتح الطرق العالمية القديمة جر الشرق الى مواجهة مـع هـذه القوى ، مع أوروبا التى ابتعد عنها الشرق الاسلامى وعزل نفسه ، فقطع اتصاله بها قرونا خيم عليـه فيها الجمود فوقع فى التخلف وظل بعيدا عما يجرى هناك من الأخذ بأسباب التقدم والعمل على مسايرة وركب المدنيـة •

فعودة المواجهة بين الشرق والغرب ـ التى ابتدأت بهجوم أوروبا على الشرق فى القرن المـاضى ـ سبقت وأحيطت بظروف وملابسات تختلف اختلافا كليا عن نظائرها فى المـاضى يوم أن دارت رحى الحروب الصليبية فى هـذه المنطقة ، فقد كانت القوتان المتصارعتان آنذاك على درجة متساوية حضاريا فالتقابل كان بين فريقين متكافئين • ولكن حملة نابليون ـ التى ابتدأت بها المواجهة ـ أظهرت أن الصراع بين الشرق والغرب يدار بأسلحة غير متساوية ، فالمعركة بين طرفين غير متكافئين ، لأن تقدم البلاد الغربية منحها تفوقا حضاريا ومكنها من أن تكون سيدة المعركة • ولم يستطع العالم الاسـلامى الصمود أمام هـذا التفوق الحضارى لأنه عاش منطويا على نفسه حقبة طويلة أضعفته وأنهكته بحيث سقط أمام الزحف الغربى سياسيا واقتصاديا • ويبدو أن الزمن قد وقف

بالشرق قرونا طويلة ، فظل ثابتا مجمدا لم يطرأ عليـــه جديد وبدا وكأنه لم ير هـــذه القرون ولم يعشها ولم يكن لمـــا طرأ عليه من تغيير داخلى — فى نوع الحكم وتعدد الحكم — أى تأثير اطلاقا ، وبالتالى لم يكن له أى تنوع من التطور السياسى والاقتصادى •

كان الشرق هو الطرف المهاجم فى سلسلة الصراع بين العالم الغربى المسيحى والشرق الاسلامى • وظل محتفظا بهـذا المركز حتى معاهدة السلام التى عقدت فى كارلوفيتس عام ١٦٩٩ م • ثم ساد الموقف هدوء قرنا من الزمن تحول ميزان القوى بعد هـــذه الفترة ، واتخذ الغرب موقف المهاجم ، فقد شن نابليون هجوما على الشرق ••• ووقف الشرق ليدافع ••• بهذه الحملة التى كان المحرك لها عقلية ذات دراية بالمنطقة بدأت حقبة تاريخية جديدة بين الشرق والغرب اكتسب الشرق فيها أهمية موقعه الجغرافى ، وعادت اليه استراتيجيته القديمة مصحوبة بتمزقه سياسيا • وقد ظهرت قضية هـــذا التمزق على المسرح السياسى بشكل ملموس وبلغت ذروتها فى الحرب العالمية [الأولى] حيث انهار النظام الذى كان قائما فى تركيا القديمة ، وبهذا الانهيار وصل الأمر فى نفس الوقت الى أعمق نقطة فى انهيار الشرق الاسلامى ••• وحدثت ردود فعل ••• وبدأت حقبة جديدة تفاعلت فيها العلاقة بين الشرق والغرب فقد أفاق الشرق من صدمة الهزيمة وتحرك تاركا المكان الذى تردى فيه ، وأخذ يتقدم بمرور السنين مستهدفا الوصول الى منطقة الهجوم ، فنحن نقف اليوم فى زمن الهجوم الشرقى على الحصون الغربية •

ابتدأ الهجوم الغربى على الشرق بحملة نابليون ، وكانت الحلقة التالية غزو شمال افريقيا ، وتلا ذلك فرصة السيطرة على شواطىء البحر الأبيض المتوسط وجنوب الجزيرة العربية ، وضم بلوخستان والتفاهم بين انجلترا وروسيا حول ايران وأفغانستان وأخذ أسلوب مقاومة الشرق للهجوم الغربى طرقا متعددة وأساليب مختلفة •

ففى الممالك الاسلامية حيث الحكم المطلق والسيادة «الأوتوقراطية»

أحست الحكومات ورجال السلطة بأن مراكزهم مهددة بالانهيار وسلطانهم يهتز تحت الموجات التى يطلقها الغرب ، فحاولوا الدفاع عن أنفسهم وتحصين مراكزهم بأن دعوا الى حركة اصلاحية — تولوا هم قيادتها — اتخذت النظام الغربى نموذجا لها ، ونسوا أن الأسس التى تقوم عليها ركائز هذا التقدم ليست موجودة ، وأن الظواهر لظهور تغيير اجتماعى لم تتوفر بعد فى مجتمعاتهم ، فما زالت الشعوب التى أمليت عليها هذه النظم الجديدة ترزح تحت وطأة التمسك بالقديم وهى مصرة على هذا الجمود • ويسر الحكومات المطلقة السيادة — رغم كل ما تبديه من ارادة الاصلاح — أن يكون الشعب مصرا على جموده ، وأن يرفض كل ما هو جديد ، بل كانت توحى اليه بذلك ، لأنه ان قبل النظم الغربية يهدد مركز سلطة الحكومة ، ولن يكون هذا التهديد أقل أثرا من العدو القادم من الغرب • لم تفهم الشعوب هذه الاصلاحات فاستعانت الحكومة بخبراء غربيين ، لكى يقيموا لأنفسهم « حصونا » تحميهم من النفوذ الغربى وكانت هذه محاولة دفع شيطان بشيطان[1] آخر ، وكان الفشل نتيجة حتمية لهذه الحركة الاصلاحية ، الا أنها تركت أثرا ايجابيا لدى الشعب، فقد أخذت المسافة بين الشرق والغرب تزداد اقترابا لدرجة أن الشعب الشرقى — الذى أمليت عليه خطة الاصلاح طبقا للنموذج الأوروبى دون أن يكون لديه مقومات تنفيذها — استيقظ وأخذ طريقه فى مسيرة التقدم ، وكان تحركه الأول ضد أولئك الذين يمارسون كبت أنفاسه والذين يشعر بضغطهم واستبدادهم بطريق مباشر : ضد الحكام المستبدين وحكوماتهم « الأتوقراطية » •

لم تكن الدعوة الى الاصلاح نابعة من الشعب بل جاءت من الحكام ، أى أنها « ثورة من القمة » وليست من القاعدة ، وكان الهدف الرئيسى لها تأمين مصالح الحكام والحفاظ على رجال السلطة ، والدفاع عن « الأوتوقراطية » ولهذا امتد خطها الأول فى المجال العسكرى ، والثانى

---

(١) أراد المؤلف أن يقول : ينطبق على هذه المحاولة قول الشاعر :
والمستجير بعمرو عند كربته كالمستجير من الرمضاء بالنار (م.ش)

فى المجال الاقتصادى والثقافى • ولم تلق هـذه الدعوة صدى كبيرا بل معارضة قوية ، ففى بداية حقبة الهجوم الغربى لم يشـعر الشعب اطلاقا بأنه مهدد •

* * *

بعد توقيع معاهدة كارلوفيتس تبين للسلطان سليم الثالث أن التجديد مسألة لا مناص منهـا ، وأنه يجب أخـذ المبادرة بقيادته فى المملكـة الاسلامية ، فهو مهم جدا وضرورة ملحة بالنسـبة للجيش ، فبدأت من الباب العالى حركة تجديد واصلاح ، سرعان ما انكمشت وطواها النسيان بعد موت السلطان •

وأعاد محمود الثانى الحياة لى دعوة الاصلاح ، عندما بدأت حرب التحرير اليونانية فى عام ١٨٢١ م ، فقد اسـتصدر فتوى من شـيخ الاسلام — وهو أعلى سلطة دينية لها حق اصدار الفتاوى طبقا للشريعة الاسلامية — تبرر له اصلاح الجيش طبقا للنموذج الأوروبى ، وأن طريقة القتال الحديثة لا تتعارض مع القرآن الذى بين فى بعض سوره كيفية القتال[1] ، وبعد أن حصل على هـذه الفتوى قام بحركة تنظيم وتجديد فى الجيش وتولى ضباط محمد على التدريب ، وكانوا خبراء عسكريين فى جيش الباب العالى ، لأنهم كانوا أبطال العالم الاسلامى آنذاك ، والسبب فى بلوغهم هـذه المرتبة أن محمد على اتجه بمصر الى الاستقلال عن الباب العالى ، ومشى فى هـذا المضمار قدر استطاعته ، واعتمد على نفسه فى مقاومة الهجوم الغربى ، واتخذ النهوض بمصر وسيلة لذلك ، فكان جيشه أقوى جيش فى المنطقة فى ذلك الحين •

---

(١) لعل المؤلف يشير بذلك الى قوله تعالى : « **ان الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص** » (الصف : ٤) فان كان المؤلف يريد المعنى الحسى القريب فقد أخطأ لأن المقصود من هذه الآية دفع الجنود الى الاقدام والشجاعة ، والجندى محتاج لذلك حتى وان كان فى يده أسلحة الكترونية والأدلة على جواز التكتيك الحربى كثيرة فليرجع من شاء الى كتب الغزوات • (م.ش) .

والمعروف أن تنظيمات الجيش المصرى فاقت مثيلاتها فى الجيش التركى القديم فقد انهارت قوات الباب العالى أمام جنود محمد على قبل أن يصل المدد الذى أرسله السلطان ويتمكن من الدفاع عن شرف الدولة ، وسببت هـذه الهزيمة للدولة موقفا حرجا ، وجرتها الى وضع كادت روسيا أن تكون وصية عليها فيه ، وألحقت بها سبة الضعف وعدم الصمود فى مواجهة محمد على ، الذى اقتحمت جيوشه سوريا وضمت شواطىء البحر الأبيض المتوسط الى مصر ، وتقدمت الى داخل الدولة دون أن تلقى مقاومة تذكر .

ومما يجدر ذكره أن البروسيين نقلوا تنظيمات و « تكتيكات » الجيش المصرى وأضافوا اليها أفكارا جديدة ، غير أنهم لم يستطيعوا تنفيذ ما وضعوه من برامج ، وفشلوا كما فشل أسلافهم على صخرة المعارضة الداخلية .

* * *

كذلك أدرك « محمود الثانى » خطر الهجوم الغربى على الشرق الاسلامى ، وبان له أنه يهدد المملكة العثمانية ويستهدف قطع أوصالها وشل ادارتها المركزية ؛ أى تنحيتها عن ادارة الأقاليم وانكماش سلطانها عليها . لذلك اتجه فى عام ١٨٣٠ م بالاصلاح الادارى مستهدفا تقوية السلطة المركزية فحدد سلطة الولاة ، وضيق دائرة استغلال حماة الحكم — ظهر فى ذلك العصر تعبير حماة الحكم وقصد به الحكام المستبدين الذين يستغلون الشعب — وتكون لأول مرة مجلس وزراء ومجلس شورى ، وكان على الولاة أن يلتزموا بقرارات ذلك المجلس ، فاذا ما أعلن أحدهم العصيان حاول المجلس اخضاعه بواسطة القوات التى كانت ترسل لاخضاع الولاة الخارجين على الدولة . وقرر هـذا السلطان نفسه أيضا — لأول مرة منـذ قرون — عقد معاهدات مع حكام البلاد الغربية لتنظيم التبادل التجارى بين الولايات الواقعة على شاطىء البحر الأبيض المتوسط وبين أوروبا ، ولم ينبع هـذا القرار من رغبـة لدى السـلطان فى تنشيط التجارة ، أو اقامة علاقات مع أوروبا ، وانما كان اجراء يحمل بين طياته

محاولة الدفاع ضد ذلك التيار الغربى ، فقد أمل الباب العالى بواسطة هـذه المعاهدات أن يمسك بزمام التأثير الغربى الذى ينمو كل يوم ، وأن يراقبه ليكون على علم بخطواته ومسالكه التى يتخذها منافذ للوصول الى أغراضه ، وأصبح واضحا لدى السلطان وجوب العمل على وضع هذا التيار الزاحف من الغرب حيث يستطيع مراقبته ويبعده عن الوصول الى النقطة التى يصبح فيها خطرا على وجود السلطة الحاكمة لتركيا القديمة • وطبقا لهذين الهدفين رسمت سياسة تركيا ، وفهم الباب العالى كيف يلعب بهذه السياسة بين القوى الأوروبية المختلفة ويوقع بينها على مدى عشرات السنين • وتحت ظل هـذه العداوة التى وقعت بين الدول الأوروبية — كانت العداوة بينها نسبية ان صح هـذا التعبير — استطاع السلطان محمود الثانى أن يؤمن وجود الدولة — الذى كان متهالكا وآيلا للسقوط — الى فترة ، ودلت التقديرات آنذاك أنه سوف ينهار لا محالة •

مات محمود الثانى فى عام ١٨٣٩ م الذى بدأ زمن الاصلاح فى عهده ، فهو الذى أرسى قواعده وقطع شوطا كبيرا فيه وكان أول سلطان يوقن ايقانا تاما أن أوروبا لا يمكن أن تضرب وترد الى ديارها الا بسلاح أوروبى ، وبغير هـذا لا يستطيع الشرق أن يقف أمامها ويوقف زحفها • ولهذا بذل جهده وحاول بكل الوسائل أن يحقق لبلده المستوى الحضارى الأوروبى كى يستطيع مقابلة هـذا الخطر الداهم ويكون لديه امكانية ردعه والوقوف أمامه • وكان ينقص هـذا الاتجاه دراسة أحوال وظروف الشعب الذى أريد رفع مستواه ، فمما لا جدال فيه حتمية وجود أرض خصبة لبذر هـذه الحضارة والا يبست قبل أن تنبت ويعتريها الذبول ان نبتت بين شعب لا يملك مقومات رعاية الحضارة وليست لديه رغبة تقبلها ، أى لابد من وجود عوامل تتناسب مع ارادة التطور وتساعد على دفعها ورعايتها • فحياة شعوب الشرق اتسمت بالجمود لا تعرف له بديلا ، ولم يكن من السهل اثناء الشعب عما اعتاده أو تغيير هـذه العادات ، فمحمود الثانى حاول وضع الحضـارة الأوروبية على أرز شرقى يبس وتحجر وصار غير مستساغ ••• حاول أن ينقل المدنية الأوروبية الى بلاد

الشرق محاولا النهوض بهـا دون أن يكون لدى شعوب هـذه البلاد مقومات استقبالها وعناصر التفاعل معها فقد ألقى ببذرة جديدة على أرض قحلت وتحجرت وحيل بينها وبين عودة الحياة اليها بتطعيمها بالمواد العضوية لتخصيبها وانباتها ، ولم تكسبها المحاولات التى قام بها المصلحون قوة ، ولم يرفع دعاة الاصلاح قدرتها بل أضعفوها • ومن هذا يتضح أن الأقاليم التى انحدرت وضاعت ، أكثر فى عهد هـذا السلطان منها فى أى عهد سبق ، رغم الجهود الجبارة التى بذلها فى سبيل الاصلاح •

وفى عهد «عبد المجيد» ـ الذى خلف «محمودا» على عرش تركيا ـ استمرت عجلة الاصلاحات فى التقدم • وقد لعبت أوروبا دورا غير مباشر فى استمرار التجديد فى تركيا ، فخف ضغط الخطر القادم من الغرب الذى ينذر باطاحة جميع الحكومات « الأوتوقراطية » • اضطرت الحكومة أن تعطى الشعب « نوعا من الدستور » « مرسوم التنظيمات أو خط جولخانا Hatti Scherif von Gulhane » غير أنه اشتمل على عبارات رنانة وجمل دعائية أكثر منها حقائق ثابتة ومفاهيم محددة ، وقد فتح ذلك طريقا للباب العالى لتعطيله كلما أمكن ذلك ، ويجىء تعطيل الدستور وعدم الالتزام بما فيه وتحويره للتخلص منه فى وقت يجرى فيه تهيئة الشعب للاصلاحات التى اتخذت أوروبا نموذجا لها ، فأى تعارض هـذا •• لقد أوحى بهذا التلاعب ـ بل أملاه ـ خوف الحكومة من نوعية الشعب ، اذ من المسلم به تاريخيا ـ ومنطقيا ـ أن وعى الشعب خطر على سلطة الملكيـة « الأوتوقراطية » ومصدر قلق لها • وكيفما كان نوع هـذا الدستور فقد أقيم طبقا له « نوع من البرلمان » ونفذ كثير من الاصلاحات وخاصة فيما بعد عام ١٨٤٠ ، فقد نشأ نوع من عدم الثقة بين انجلترا والنمسا وبروسيا وتربصت كل واحدة بالأخرى محاولة منعها كسب مناطق من المملكة التركية ، وفى عام ١٨٤٠ م التزموا فيما بينهم بالمحافظة على حدود تركيا لا يجوز لأحد أن يتخطاها ، وأن يكون جهدهم موجها للتأثير فى الاصلاح الادارى طبقـا للنظم الحديثة • وقد أرادوا بالاصلاح الادارى ـ كذلك أيضا بالاصلاح فى المجال العسكرى ـ « ترميم »

الدولة المتهالكة واحياءها لتكون على وضع يمكنها من الدفاع عن نفسها • وكان من برامج هـذا الاصلاح اقامة هيئات ادارية فى الأقاليم على نمط النموذج الأوروبى يكون للشعب فيها تأثير كبير •

وفى عام ١٨٥٣ خرجت روسيا من التحالف الذى عقد فى عام ١٨٤٠ م وتنكرت له وتنحت عن التزاماتها فيه ، فشنت هجوما على تركيا كان بداية حرب القرم ، فكان ذلك دليلا على رغبتها الاستعمارية تجاه الباب العالى وكشف الغطاء عن نيتها القديمة لانتزاع مناطق من تركيا • ولكن تدخل بريطانيا وفرنسا ضيع الفرصة على روسيا وحال بينها وبين ما أرادت بهذا الهجوم فتراجعت الى ما وراء الحدود طبقا لمـا قرر فى اجتماع باريس الذى أنهى حرب القرم •

وكان الهجوم الروسى ناقوسا رن على الباب العالى وأيقظ الشعور لديه بأنه يعيش فقط على حساب النزاع القائم بين القوى الأوروبية ، فنمت مرة أخرى ارادة الاعتماد على النفس فى الدفاع ، ووسيلة ذلك مزيد من الاصلاحات ، وعليه فقد اندفعت موجات متتالية من النظـم الاصلاحية كى تطرد الخطر الداهم السريع فى اندفاعه الى داخـل حدود البلاد وفى نفس الوقت جرت محاولات لكسب صداقة كل القوى ، وكان الطريق الى ذلك منح كل الامتيازات المسكنة للدول الأجنبية ، ولعـب حرص كل دولة فى الحصول على امتياز مثل الأخرى دورا له وزنه فى الحفاظ على الوضع القائم للدولة العثمانية ومن الامتيازات التى منحتهـا الدولة السماح لكل المذاهب بحرية ممارسة طقوسها وعبادتها ، وأعلنت حرية الأديان وأعطى لكل طائفة الحق فى انشاء مدارس خاصة بها ، وبهذا انهارت الجسور الأخيرة التى حمت المملكة العثمانية من الطوفان الثقافى الذى نبع فى الغرب ، ودفع على هيئة تيارات قوية عبر المسالك التى فتحتها أوروبا الى الشرق • لقد بدأت حقبة تاريخية تنساب فيها الموجات ذات الأثر الفعال الذى سيقرر مصير العالم الاسلامى بالنسبة لاستمرار التطور ، فلأول مرة فى تاريخ الاسلام يسوى بين المسيحى وبين المواطن المسلم فى قانون مدنى فى دولة اسلامية • وقد قصد البـاب العالى

بهذه التسوية التى نص عليها فى قانون عام ١٨٥٦ م المرسوم السلطانى « Hatti Humajun » أن يلعب بها دورا فى الأرجوحة السياسية فى عالم الصراع بين القوى الكبرى ، غير أنها كلفته كثيرا فقد انتقصت من سلطاته المطلقة وأضعفت هيبته داخل المملكة وفى أوساط المواطنين المسلمين ودفعتهم الى التحرك •

وتحت ضغط القوى الغربية اندفع فيضان التجديد الى أبعد من هذا ، ففى أواخر العقد الخامس فوجىء الشعب باصلاحات فى القضاء وفى أجهزة الدولة المالية ، ولم يتوقف عند هذا الحد ، بل واصل تقدمه فحصل لبنان على نظام ادارى جديد منح المسيحيين امتيازات جعلت كفتهم راجحة على كفة غيرهم ، كذلك منح المناطق الواقعة تحت النفوذ الفرنسى حكما ذاتيا وتبع ذلك قيام هيئة مالية من الفرنسيين والانجليز بتأسيس Banque Imperiale Ottomane (بنك الامبراطورية العثمانية)• بعد هذا بسنتين أنشئت ادارة أوروبية لديون الدولة التركية • ان العقل الأوروبى الذى استعانت به تركيا ليساعدها على تنفيذ البرامج الاصلاحية كى تستطيع الدفاع عن نفسها وتتمكن من الوقوف ضد الهجوم عليها لا يستطيع أحد التخلص منه أبدا ، لقد أعطى من الامتيازات ونال من الفرص ما يمكنه من تثبيت أقدامه فوق هذه الأرض • فى نهاية العقد السابع خطا تطوير القانون خطوات واسعة وانتقل الى مرحلة صياغته طبقا للنموذج الأوروبى الذى اتخذ أسوة لهذا التجديد ، ولم يفهم الشعب ما يجرى حوله واستيقظ متباطئا ففتح عينه على أشياء غريبة عنه ، وقانون ظن أنه خطر على وجوده فعارضه ، وكانت موجة المعارضة شديدة ، لأنه ظن أنه سيضيع ويقضى عليه بالفناء اذا تم هذا التغيير فى القانون •

ولقد جرت حرب القرم أزمات مالية ، فتراكمت الديون على الدولة من جراء ما أنفق عليها ، وأدى الأمر بالباب العالى الى الافلاس فى عام ١٨٧٥ م ، ونتج عن ذلك خلع السلطان واستدعاء ادارة دولية للاشراف على صندوق الدين سميت بـ « Dette Puplique Ottomane »

تولى « عبد الحميد » الحكم فى عام ١٨٧٦م فبدأت فترة عصيبة فى تطور تركيا القديمة ، فتحت تأثير القوى الأوروبية ، وعد عبد الحميد — فى بداية عهده — الشعب بدستور يتسم بالمرونة ولا يتحيز لطائفة معينة ، فسوف ينص فيه على أن كل المواطنين سواء أمام القانون ويطلق عليهم من الآن « عثمانيون » بصرف النظر عن دينهم ومذهبهم العقدى ، ومع أن الاسلام لا زال دين الدولة الرسمى فقد ضمنت الحكومة لكل الطوائف حرية ممارسة شعائرهم ومزاولة طقوسهم دون أدنى تضييق • وأعلنت حرية النشر وحرية التعليم والتعلم ، واعترف بحق الاجتماع وحق الشكوى ، ولم تلق هذه الاصلاحات أى صدى عند المواطنين بل فتحت أبوابا أخرى أمام قوى البلاد الغربية نفذت من خلالها والتقت بجبهة جماهيرية عريضة ، وازداد التقاء الغرب من هذه الجماهير زيادة مطردة•

كون البرلمان الذى ناقش الدستور وكان يتألف من مقصورتين وعدد أعضائه ١١٦ ، منهم أربعون مسجيا وتعثر سير هذا النموذج الأوروبى لعدم فهمه ، فلم يستمر سوى سنتين فقط ، ثم فكر عبد الحميد فى أن يعيد الماضى ••• يعيد نظام الحكومة « الأتوقراطية » ، الحكومة صاحبة السيادة المطلقة دون أن يلغى الدستور من الناحية الشكلية ، فحل البرلمان ولم يجتمع برلمان بعد ذلك فى تركيا الا بعد مضى ثلاثين عاما عندما ثارت قوى الشعب التركى ، وقد هيئت الظروف تهييئا كاملا لاستقبال هذا التجديد •

لو أحصينا ما حدث فى هذا لقرن من الاصلاحات التى أمليت املاء من الطبقة الحاكمة ، ولو استعرضنا محاولات التجديد لتبين لنا أن كثيرا من مجهودات الباب العالى ذهبت هباء ، رغم أن الرغبة فى الاصلاح كانت مدفوعة بمحاكاة النظم الأوروبية — لأنها اتخذت نموذجا له — وبالحرص على انقاذ تركيا من الانهيار السياسى وحمايتها من الضغط الأوروبى ، ولكن النتيجة جاءت على عكس ما أراد الباب العالى ، فلم تجد الاصلاحات أى صدى فى الشعب بل فتحت أهوسة مرقت منها تيارات التأثير الغربى وازداد تأثير هذه التيارات على الشعب الشرقى ازديادا مطردا نبتت فى

ظله بشائر المعارضة ، وتحولت الى مراكز قوى ضد الاستعباد السياسى الذى مارسته السلطة الحاكمة زمنا طويلا ، وتحول الأمر الى كفاح لابراز الكيان الشعبى ثم كونت تلك القوى — بعد الانهيار السياسى للشرق — جبهة ضد البلاد الغربية فأمنت البناء الجديد للدولة فى العالم الاسلامى .

* * *

وفى مصر سايرت النهضة ما حدث فى تركيا زمنا وموضوعا ، فقد جرى فيها مثل ما حدث فى تركيا رغم أن ربطها بتركيا منذ عهد محمد على كان واهيا ، فقد قامت هنا أيضا « ثورة أتت من القمة » مقتفية أثر أوروبا ومتخذة ما يحدث فيها نموذجا يحتذى ، فأرغمت الجماهير ارغاما على تقبل التجديد دون أن تعرف نواحى الخصوبة فى هذه النظم المستوردة فلم تهتم بها . لقد فتحت هذه النهضة فى مصر بابا بل بوابة للنفوذ الأوروبى ، وسرعان ما أغرق البلد الغنى على ضفتى النيل فى بحيرة الاستعمار الاقتصادى الأوروبى ، وأدى ذلك الى فقدان الدولة سيادتها عام ١٨٨٢م عندما احتل الجيش الانجليزى مصر بعد أن قصف الاسكندرية بمدافعه .

* * *

وفى مملكة القاجاريين فى ايران اتخذت النهضة نفس المسار طريقا لها ، فتشابها فى كل شىء ، الا أن الاصلاحات هنا لم تلق صدى كبيرا ، وكان طنينها خافتا وسيرها أبطأ منه فى تركيا وفى مصر ، والمعروف أن طبيعة التجديد حملت معها عوامل تحليل لكل ما عاق المجتمع عن التقدم « وأدوات كيميائية » تذيب الصدأ الذى وقف عازلا المجتمع عن تلقى النظم الجديدة التى تسهم فى تقدمه وتدفعه الى التحضر ، كذلك كانت محاولة القضاء على الجمود مقدمة لغرس البذور الجديدة ... فى ايران كانت قيود الجمود أبطأ فى تحللها وانفكاكها منها فى البلاد الساحلية التى كانت تصيبها تيارات الأحداث العالمية رغم سياسة الانعزال ... بدأت ايران حقبة التجديد باصلاح الجيش — كما كان الحال فى

تركيا — فأدخلت النظم الحديثة لترفع من قدرة الجندى القتاليـــة وتهيىء له أحسن وسائل الدفاع ؛ ففى عام ١٨١٧ م استدعيت بعثة عسكرية من انجلترا وفرنسا للعمل كخبراء عسكريين فى الجيش والقيام بتدريب القوات على الأساليب الحربية الحديثة ••• وبينما كانت ايران منشغلة كلية باصلاح الجيش وقعت فى نزاع مع روسيا واضطرت على أثره مملكة القاجاريين التى أسسها محمد خان فى عام ١٧٩٤ أن تلقى أول هزيمة وتفقد مناطق من المملكة • وفى عام ١٨١٣م فقدت ايران كل ما تملكه من القوقاز والقرغير واضطرت الى قبول التنازل عنه فى معاهدة الصلح التى أبرمت فى جلستان ، وبعد خمس عشرة سنة خرجت ايران من أرمينية •

بعد هذه الخسارة الفادحة أراد الشاه محمد أن يوسع قاعدة المقاومة ضد الطامعين فاستجلب معلمين وخبراء من الدول المحايدة ، كى يثقفوا الشعب ويعدوه اعدادا يمكنه من تنظيم نفسه ، واعداد مقاومة شعبية مرتكزة على أوسع الجبهات • وحاول الخبراء والمعلمون القادمون مـــن النمسا وايطاليا وفرنسا توعية الشعب بالحضارة الأوروبية وأجروا تجارب بين الجماهير — التى تعيش حياة خلت من عنصر الحركة وخيمت عليها السآمة — لدفع المجتمع الى التحضر ، والى أن يأخذ مكانه فى ركـــب المدنية ، وكان الفرنسيون أقدرهم على استغلال هذه الفرصة ؛ ويرجـــع تاريخ انتشار اللغة الفرنسية فى ايران الى تلك الفترة •

لقد تعرضت ايران لضغط روسى من الشمال — كما ذكر آنفا — وقابله ضغط انجليزى من الجنوب ، فقد بدأ توسع بريطانى فى الخليـــج الفارسى وفى أفغانستان فى عهد الشاه محمد الذى امتدت فترة حكمـــه من عام ١٨٣٤ حتى ١٨٤٨م أصبح خطر البلاد الغربية من الناحيتين واضحا ومثل كالشبح أمام العيون وبان للمسئولين أن أوروبا لا بد أن تضرب بسلاح أوروبى ، ووجد هذا الرأى صدى مثل ما حدث فى تركيا • كان الشاه ناصر الدين — الذى قاد دفة الدولة فى ايران من عام ١٨٤٨م حتى عام ١٨٩٦م — مصلحا من الطراز الأول وثائرا يجلس على العرش ، وقد أثرت فيه الرحلات الثلاث التى قام بها الى أوروبا ، حيث اطلع

على النهضة الأوروبية ، وعاد منها حاملا أملا كبيرا ورغبة ملحة فى تطوير بلاده ووضع أمامه خطة تنفيذ الاصلاح حسب ما تخيل وتصور ولكنه نسى مستوى ثقافة شعبه ومدى وعيه ، وغاب عن خاطره المقدمات التى لا بد من وجودها ، والامكانات التى يجب أن يسبق تحققها كل عمل على طريق التجديد للوصول الى محاكاة النهضة الأوروبية • فتح الشاه طريقا للعقل الأوروبى — كما كان الحال فى تركيا • ولم يستطع التخلص منه بعد ذلك ، ونقل المحيطون به ظواهر الحضارة الأوروبية دون جوهرها . وأخذوا منها القشور دون اللب وكذلك كان حال معظم الطلبة الذين أرسلهم الشاه الى أوروبا للدراسة ، فقد عادوا الى بلادهم بصورة مظلمة لأصل الحضارة الأوروبية •

وسارت الأمور فى ايران كما سارت فى تركيا فواجه الشعب القوى الغربية والانتاج الأوروبى واستمرت المواجهة زمنا طويلا فأخرجته ببطء من جموده فبدأ عهدا جديدا أخذ فيه بزمام التطور وتحركت تلك القوى التى سوف تشكل المستقبل بوقوفها أمام المشروعات السياسية للطبقة الحاكمة ، ففى عام ١٩١٧ — حيث وصلت حقبة التجديد الى نهايتها فى عهد الشاه مظفر الدين — ظهرت تلك القوى على مسرح الصراع السياسى وقد اتجهت معارضتها ضد الشاه وحاشيته الملتفين حوله من الرجعيين ، وفيما بعد ضد البلاد الغربية ، والأوروبيين الذين جىء بهم للاشراف على تنفيذ المشروعات الاصلاحية •

* * *

استهدف التجديد فى النظم السياسية محاولة تقوية الشرق ليتمكن من الدفاع عن نفسه ضد أوروبا التى اتخذت موقفا هجوميا ضده ، ورغم ما بذل فى هذا المجال من جهود فقد ازداد ضعف العالم الاسلامى ، وتلاحق انضمام مناطقه الى القوى الغربية بدون انقطاع • أيقظ سير الأحداث لمأساة السقوط الاسلامى فى الضحايا وعيا جديدا ، فبان لهم أن عودة المواجهة مع البلاد الغربية لم توقف التدهور ، وأن محاولتهم تقليد أوروبا لم يعد عليهم بالفائدة وأن مجهوداتهم للعمل على ضرب أوروبا

بسلاحها ذهبت هباء ، وأن تأثير الأوروبيين الذين جاءوا للاسهام فى تحضير الشعب كان سلبيا أكثر منه ايجابيا •

وهكذا اتجه التفكير الى أسلوب آخر لطرد الأشباح الغربية ، فبدىء بتعبئة الشعب دينيا واتخذ الاسلام وسيلة للدفاع السياسى ضد البلاد الغربية المغيرة التى تمثل المسيحية لدى الشرقيين ، كما دلت على ذلك حوادث الماضى • لقد كانت هذه محاولة أخيرة لتجميع كل القوى المادية وتوحيدها تحت شعار اسلامى لمواجهة الغرب ، والدفاع عن الكيان السياسى وتبلورت هذه المحاولة فى الدعوة الى الوحدة الاسلامية التى أعادت الى الأذهان كفاح العصر الاسلامى الأول الذى اتسم بالانتصارات الساحقة للدولة الاسلامية • وفتحت هذه الدعوة الآمال أمام الشعوب لاستعادة المجد القديم ، لذلك ذكرت بانتصارات الشرق فى الحروب الصليبية ضد الغرب المسيحى ، وكان احياء هذه الأفكار وقودا ساعد على سرعة انتشار الدعوة الى الوحدة الاسلامية ، فقد فهم الشرقيون أن البلاد الغربية تتقدم لتحقيق مطامعها الاستعمارية وهى حاملة الصليب ومدعية أنها تمثل المسيحية فى حين أن ما يدفع القوى الأوروبية ويقودها فى الطريق الى البلاد الشرقية شىء آخر غير المسيحية ، وحيث تعسرت محاولات الاصلاح التى قامت بها الحكومات الشرقية للوقوف أمام الاستعمار الغربى ، فبعث ذلك يأسا فى النفوس أعقبه تميعا واهمالا ، واتجهوا الى أخذ علم النبى راية يحاولون تحت لوائها مقابلة البلاد الغربية الزاحفة الى الشرق دون توقف ، وحملوا شعار الهلال ليقابلوا به الصليب ، اعتنقوا الوحدة الاسلامية كأسلوب دعائى لتوحيد كل المسلمين تحت علم النبى ولتجميعهم للمقاومة الدينية صفا واحدا ضد البلاد الغربية « المسيحية » •

ظهرت فكرة الوحدة الاسلامية — أو بتعبير آخر الدفاع الاسلامى الوحدوى — بسيطة ولكنها لاقت حماسا شديدا وصدى كبيرا بين شعب عبىء عاطفيا ووجدانيا بالتراث الاسلامى ، واستولى عليه أمل عودة مجد الدولة الاسلامية فوجدت هذه الفكرة منه استجابة أكبر مما وجدته

الاصلاحات التى أملتها عليه الحكومات دون أن تهيأ لها الظروف الملائمة ودون أن يكون هناك مقومات بقائها ونموها •

ان طبيعة التدين هى شعور بقوة غيبية مقدسة لها سلطان على المتدين تخضعه لطاعتها وتوجهه حسب ارادتها ، فالمتدين يتلقى الأوامر وينفذها دون اعتراض بل يحاول التقرب الى هذه القوة بتنفيذ ما سنته من شرائع وما أوحت به من سنن ، ولم تبلغ درجة هذه الطاعة والخضوع فى الأديان — ربما فى الأديان كلها • قوة ما بلغته فى الاسلام • (فكلمة الاسلام تعنى الاستسلام) ، فطبيعة المسلم التسليم لارادة الله والرضا بقضائه وقدره والخضوع بكل ما يملك للواحد القهار •

وكان لهذه الطاعة أثران مختلفان : ففى العصر الاسلامى الأول لعبت دورا كبيرا فى الحروب ، اذ حققت نصرا متواصلا ، لأنها دفعت فى الجندى روح الفداء ••• وفى العصور الأخيرة كانت سببا فى الجمود الذى خيم على العالم الاسلامى فقذف به الى الانحدار وعزله وطواه عن تيارات الأحداث العالمية[1] •

وتنطلق اليوم استغاثة لاحياء هذه الطاعة ، التى تبعث فى الجندى روح التفانى فى سبيل الله الذى تأكدت فاعليته فى التعبئة الدينية أثناء العصر الذهبى للاسلام ولكن الدافع لهذه الاستغاثة الوصول الى هدف سياسى لا يمكن الوصول اليه الا عن طريق عقيدة راسخة لها قوة فى نفوس الشعب •

وقد خرجت هذه الاستغاثة أولا من استانبول حيث كان السلطان التركى يعتبر خليفة المسلمين ويمثل جميع العالم الاسلامى ، فهو الرمز الظاهر لعالم اسلامى متحد — عقديا — ، هذا اذا صرف النظر عن المذهب الشيعى الذى يقطن أتباعه فى ايران وفى جنوب الجزيرة العربية ، فهم لا يعترفون بهذا الخليفة لأن بينهم خلافا مذهبيا ، اذ أن هذا المذهب

---

(١) لا يرجع الجمود الى الطاعة العمياء كما يقول المؤلف بل الى استبداد الحكام وايثارهم جهل الشعب ليظل خاضعا لسلطتهم • (م • ش) •

الشيعى لا يمثل أهمية من الناحية العددية ؛ فأتباعه يبلغون تقريبا ٥٪ من مجموع المسلمين •

ويفهم المرء من هـذا أن الباب العالى ظل يقود حروبه ويحمس جنوده بهذه الطريقة التى تدفع الجندى الى الجهاد بشعوره ووجدانه لأنه يدافع عن عقيدة ويحمل لواء الهلال ضد الصليب ؛ وظلت هـذه سياسة الباب العالى حتى زمن الصراع فى البلقان • وفى نفس الوقت عقـد اتفاق مع تلك الحضارة التى تطورت تحت لواء الصليب ليؤمن تفوقها الآلى • لقد أحيت حركة الوحدة الاسلامية مسائل عديدة ونفضت عنها غبارا حجبها زمنا طويلا ، وأهم تلك المسائل أن الاسلام ــ منـذ عصره الأول حتى يومنا هـذا ــ ليس نظـاما دينيا فقط بل سياسيا واقتصاديا واجتماعيا أيضا ، فلم يذكر القرآن أمور الحيـاة الدينية فحسب ولم تقتصر السنة على وصف حيـاة محمد [ﷺ] فيما يتعلق بالعبادة ــ قولا أو فعلا أو تقريرا ــ بل تناولت نواحى حياته الدنيوية أيضا • هـذه التعاليم التى جاء بها القرآن ليست تعاليم كنسية كما هو الحال لدى الكنيسـة المسيحية بل تناولت كل شئون الحيـاة الدينية والدنيوية ، ومن هنا كانت وحدة الدين والدولة فى كل الممالك الاسلامية فى العصور السالفة ، ومن هنا أيضا احتل العلماء والفقهاء مركزا مرموقا فى العالم الاسـلامى ، وكانوا المرجع فى كل الآراء ومصدر الفتاوى وأصحاب الرأى فى كل ما يتعلق بالدولة الاسـلامية ونظم ادارتها ، فعندما حاول السلطان سليم اصلاح الجيش فى أوائل القرن الماضى تحتم عليـه أولا استشارة العلماء للحصول على فتوى من شيخ الاسـلام تبين أن مثل هـذا الاصلاح لا يعارض ما جاء فى القرآن الكريم ، اذ أن الآية تقول :« **ان الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص** »[1] فقد بدا له أن الآية تقف عقبة فى سبيل اصلاح الجيش ليحارب « بالتكتيك » الحديث ولم يدر أن هنـاك آية أخرى تقـول :

---

(١) الصف : ٤ .

« **وقاتلوا المشركين كافة كمـا يقاتلونكم كافة** »[1] فهذه الجملة أعطت الاصلاح العسكرى الذى أراده السلطان اشـارة الانطلاق ، وأضفت عليـه حكم الجواز ، لأن البلاد الغربية التى اتخذت نموذجا للنهضة العسكرية هى تمثل الفريق غير المؤمن ، هى العدو الكافر الذى عبأ جيوشه ضد الشرق الاسـلامى وعلى المسلمين أن يقاتلوه ، ويقابلوه بالمثل ، ويقاتلوه كافة كما يقاتلهم •

ان اتجاه المسلمين نحو مكة — وطن الاسلامى — عامل من أهم العوامل فى تقوية وحدة الاتجاه الداخلى بين المسلمين وأسلوب يضفى على جميع نظم الحياة فى المجتمع الاسلامى طابع الوحدة وصفة التماسك ، يتوجه المسـلمون كل سنة نحو مكة فتتحد خطاهم نحو هدف واحد ، وأفكارهم — وأن كان ذلك غير ممكن — الى غاية واحدة • وهناك فى مكة تبسط حالة العالم الاسلامى ، ويتصاعد منها أنين الأفكار المكلومة ممزوجا بوحدة الشعور بضرورة الكفاح سويا والسير معا على طريق النضال ، ويتعمق هـذا الشعور فى نفس الحجاج ، ويحملونه معهم عائدين الى الأقاليم البعيدة المكلومة فى العالم الاسلامى •

حاولت الدعوة الى الوحدة الاسلامية ايقاظ هذا الشعور والاستفادة من طاعة المسلمين وتعبئة المسلمين لمساندة هذه الدعوة التى اتخذت محركا سياسيا فى معركة الدفاع ضد الغرب المهاجم • وكان أهم شخصية حملت لواء هذه الدعوة السلطان عبد الحميد الثانى نظرا لمركزه كخليفة ، كذلك كانت الوحدة الاسلامية مهمة بالنسبة له فهى السهم الذى يحمل سياسته كسلطان — حاكم — على شعب المملكة العثمانية وكخليفة تجاوز سلطانه وهيبته حدود تركيا وانتشر بين المسلمين فى جميع المناطق الاسلامية وفى هـذا المجال — خارج حدود تركيا من مراكش الى البحر الجنوبى — بحث عن القوى الاسلامية ليبعثها للدفاع عن مملكته الكبيرة المتهالكة ، فبعد توليه السلطة مباشرة — عندما سن تحت الضغط دستورا لتركيا —

---

(١) التوبة : ٣٦ ..

أصدر مرسوما يربط الخلافة بالسلطان ، أى أنه أصبح خليفة المسلمين ، فهو ذو لقبين : سلطان وخليفة وبهذا استعاد مكانته وهيبته فى المناطق التى انتزعت منه سياسيا ، ولأول مرة منـــذ قرون عادت الهيبة والمكانة الى الخلافة مرة ثانية واعترفت بها الدول الغربية نفسها ، لأن الخليفة حصل على حقوق وواجبات على ارعايا المسلمين فى البلاد التى انفصلت عن تركيا ، بل أصبح له هيمنة روحية على كل المسلمين •

ولكن الدعوة الى الوحدة الاسلامية كانت اتجاها حتمته الظروف السياسية فصادمت ظروفا غير مهيأة ولم تكن مقومات نجاحها مكفولة بالضبط كما حدث فى تلك الاصلاحات حسب نموذج البلاد الغربية • ولو سبقت هـــذه الدعوة بمقدمة تجديد الفكر الاسلامى وتحرره من الجمود والعكوف على النصوص لكان الوضع مغايرا ولتحولت النتيجة ؛ ليتهم عكفوا على النهوض بالفكر وتخليصه من شوائب الجمود ورواسب الماضى المتخلف ، ولكن لم يظهر هـــذا الاتجاه فى عهد عبد الحميد • ومع عدم وجود مواصفات نجاح الدعوة الى الوحدة الاسلامية فقد بالغت البلاد الغربية فى تقديرها وأهميتها وأثرها عندما وصفها المعلقون فى نهاية القرن الماضى وأوائل القرن الحالى بأنها منطلق سياسى ، فى حين أنها خلت من مضمون محدد • فهى لم تخرج عن ذاتها ولم يكن لها من ذاتها أى تأثير ، بل كانت مرتبطة بأهداف سياسية ، فقد استهدف من ورائها فى تركيا خضوع وانطواء الاتجاهات المتعددة تحت راية المصالح الرئيسية للباب العالى ؛ وأراد عبد الحميد بهذه الدعوة احياء الخلافات الدينية فى الشرق الاسلامى مع المسيحية ؛ وأمل من وراء ذلك ضرب السياسة الغربية ، أى أنها كانت أسلوب اثارة ضد « البلاد الغربيـــة والمسيحية » وضد مطامعها الاستعمارية ، لقد أريد بالوحدة الاسلامية أن تكون مركز ثقل وتيار مضاد للأفكار الجديدة غير المتعصبة التى جاءت من الغرب المسيحى والتى مهدت حملة النهضة الأوروبية ممرا لها فى العالم الاسلامى • هـــذه الأفكار الحرة تهدد بثلم الأسلحة التى غزت ثلاث قارات وانتصرت فى غزواتها انتصارات ساحقة وبنت قوة عالمية •

تنتفض هـذه الأسلحة الآن للدفاع ، وفى هـذا المعنى كانت استغاثة الوحدة الاسلامية موجهة الى العاطفة الدينية أى الى التعصب الدينى •

على الرغم من تيقظ أوروبا الزائد لحركة الدعوة الى الوحـدة الاسلامية فقد وجد هـذا الاتجاه الذى تبناه عبد الحميد تجاوبا كبيرا لدرجة أن الناقدين للاسلام يعرفون بأن الشعور بالوحدة الاسلامية بين المسلمين فاق كل تقدير ولم يبلغ من القوة منـذ الحروب الصليبية مثل ما بلغه فى الفترة التى دعى فيها الى الوحدة الاسلامية ، فخط الحجاز الذى دعا عبد الحميد كل المؤمنين لبنائه كان تعبيرا حيا لصدى هـذه الوحدة خارج تركيا ، لقد ربطت العاطفة الدينية كل المسلمين ، ووحدت بينهم للعمل على اتمام هذا الخط ، ومول البنـاء من التبرعات التى انسابت من جميع أنحاء العالم الاسلامى • كذلك كانت عواطف الشعوب الاسلامية فى جميع أنحاء العالم الاسلامى فى جانب الجيش التركى فى الحروب التى قادتها تركيا فى النصف الثانى من القرن الماضى ••• حتى بداية القرن الحالى ، فنصره كان نصرا للاسلام وهزيمته كانت هزيمة للاسلام •

وهكذا ازداد الشعور الجماعى قوة ، وبلغ نموه وتطوره حد نبذ الخلافات وايثار المصالحات على المضى فى المنازعات التى تقف فى طريق الوحدة داخل العالم الاسلامى ، وكان التوصل الى المصالحات يحدث أحيانا بطريق مفاجىء ، ففى حرب طرابلس عندما تعرض جزء مستقل سياسيا فى شمال افريقيا المسلم لهجوم ايطالى عقدت مصالحة فى نفس اليوم بين السنوسى وتركيا ، وتوصل الباب العالى الى ما بذل فى سبيله مجهودا طوال عشرات السنين دون الحصول عليـه •

كتب أغا خان زعيم المسـلمين فى الهنـد وصديق انجلترا فى عام ١٩١٤ م يقـول :

« ان برنامج التربية والتعليم الذى وضعه الانجليز للهند ويقومون على تنفيذه يحمل فى طياته نزعات وطنية ، ولهذا نمت عند المسلمين فى

الهند نزعة اقليمية • غير أنهم لم تعزلهم عن اخوانهم المسلمين جبال الهملايا ولا امتداد المحيط الهندى • فبينهم وبين اخوانهم المسلمين فى البلاد الأخرى وحدة لا تقبل الانفصال ، وحدة تعلو كل الخلافات المذهبية وتجمع كل الأوطان تحت لوائها ، أسست بين المؤمنين على قواعد دينية راسخة ، فلم يجمع المؤمنين تعاليم القرآن فقط ، بل أسهم أيضا فى وحدتهم تاريخ وفلسفة العرب والشعر الفارسى والمصرى والمغربى والأسبانى • والمسلمون الذين لا يشبعون من هذا المنبع هم الأتراك والعرب والفرس والهنود سواء اتصلوا بالغرب وبالثقافة الغربية أم لا • كل هؤلاء المسلمين مرتبطون بوحدة الفكر والشعور والانطباعات » •

لقد طرح المسلمون المنازعات جانبا وتناسوا الخلافات بين المذاهب الاسلامية وتكاتفوا لازالة العقبات الداخلية التى تعوق الوحدة ، يظهر ذلك جليا فى سياسة التقارب بين تركيا وايران • هاتان الدولتان الاسلاميتان انفصلتا من زمن بعيد بسبب العداوة بين السنيين والشيعيين ، ويرجع تاريخ هذه العداوة الى عصر صدر الاسلام ، فبعد موت الخليفة الرابع (على بن أبى طالب) الذى اغتيل فى عام ٦٦١ م اندلع صراع حاد بين المسلمين ، وانقسموا فريقين : فريق يؤيد أبناء على — أحفاد النبى ، لأن عليا كان زوج فاطمة بنت النبى — فى دعوتهم بأنهم أحق بالخلافة ، وآخر وقف بجانب الأمويين الذين انتزعوا الخلافة لأنفسهم بعد موت على ، فالنزاع فى مبدأ أمره كان نزاعا على السلطة وصراعا حول الحكم وخلافا حول تقييم الأشخاص ، غير أنه أخذ طابعا دينيا • وتناول بعد ذلك مسائل عقدية وأحكاما فقهية • هذا الانقسام الدينى الذى كان طابع الخلاف بين تركيا وايران كان سياسيا أيضا ، ولكنه طوى وتنوسى عندما ظهرت الدعوة الى الوحدة الاسلامية ، فقد عرف شاه ايران طريقه الى استانبول فقام بزيارة لسلطان تركيا — خليفة المسلمين — ليدعم وحدة الاسلام • ولا يستطيع فهم أثر ذلك التقارب الا من عرف حجم العداوة بين المذهبين ، بل لا يستطيع ذلك الا من رأى مظاهر العداء بين الشيعيين والسنيين فى تلك المناطق الاسلامية حيث يعيش أتباع

كلا المذهبين ، فقد ذكروا أن عددا كبيرا من الشيعيين الذين يحجون الى كربلاء والنجف حيث يرقد على وبنوه — ضحايا الأمويين الذين اغتصبوا السلطة وانتزعوا السيادة — يكتبون على نعالهم أسماء الخلفاء السنيين كى يطئوها أثناء سيرهم على الرمال المتوهجة من أثر أشعة الشمس •

كان عبد الحميد الثانى — الذى أطلق عليه لقب الخليفة الأحمر — أول داعية الى الوحدة الاسلامية وكان يرمى من وراء هذه الدعوة الى هدفين : الأول يتعلق بالسياسة الخارجية والآخر يتعلق بالسياسة الداخلية، فقد أراد فى مجال السياسة الخارجية تجميع قوى المقاومة فى العالم ضد الغرب ، أما فى مجال السياسة الداخلية فقد استعمل هذه الدعوة فى وقف اصلاحات النظم الادارية التى كانت تحتوى النموذج الأوروبى — لأن فى هذه الاصلاحات خطرا عليه فهى تؤثر فى أذهان المواطنين وتعبىء فيهم روح الثورة على الاستبداد ، وذلك يهدد سلطة الخليفة ويهدد كيان المملكة العثمانية القائمة على « الأوتوقراطية » — والأفكار التى انتشرت فى أوروبا منذ اعلان حقوق الانسان بطريقة سريعة ، هذه الأفكار التى جاءت بها الثورة الفرنسية اقتحمت الفكر الشرقى ، جاءت مع الاصلاحات التى نفذت فى الشرق ودخلت مع الحقوق والامتيازات التى حصلت عليها البلاد الغربية فى البلاد الاسلامية • وقد أثرت تأثيرا كبيرا فى بعض طبقات الشعب ودفعت هذه الطبقات الى الحركة ، فالدعوة الى الحرية والمساواة والاخاء وجدت صدى بين الشباب ، ودعوة القومية — على النحو الأوروبى — هزت أجزاء المملكة الاسلامية الكبرى ، وزعزعت حكم صاحب السيادة المطلقة ، فما كان من عبد الحميد الثانى الا أن أحيا الوحدة الاسلامية على مسرح الصراع الفكرى ليعيد العصبية الرجعية التى يستند اليها لتحمى حكمه الاستبدادى •

ان سياسة الأخذ والعطاء فى وقت واحد سياسة فاشلة ، حاول عبد الحميد أن يتبعها ، ففشل فشلا ذريعا وقضى عليها نهائيا عندما اضطر خليفته أن ينهج سياسة سلفه ، فعند اندلاع الحرب العالمية دعا محمد

الخامس كل المسلمين الى الجهاد «الحرب المقدسة» كى يصد هجوم انجلترا وروسيا ، وانطلق هـذا النداء الى الجهاد دون أن يحدث صدى ، وبدا أن سياسة الدعوة الى الوحدة الاسلامية لم تحدث الا رنينا خافتا وفشلت آخر محاولة يائسة لتعبئة كل القوى المـادية فى العالم الاسلامى من أجل فكرة سياسية تحمل مسوحا دينيا ؛ فلم يتحرك المسلمون فى الهند وارتفع السلاح فى العالم العربى ضد الباب العالى ، وانهارت آخر سلطة اسلامية كبرى ، وسقطت دعوة عبد الحميد الى الوحدة الاسلامية ، ولم تصمد أمام تيارات القومية •

* * *

انطلقت الدعوة الى الوحدة الاسلامية من طبقة الحكام ذات السيادة المطلقة وقامت الدعاية لها لتحقيق أهداف سياسية وكان أهم منها رد الفعل الذى بدأ ينتشر بين الشعب ويحتل قاعدة شعبية عريضة اثر عودة المواجهة مع البلاد الغربية والاتصال بمراكز الثقافة والمدنية الأوروبية •

وكان رد الفعل هـذا طبيعيا وأخذ طريقه لتحقيق أهداف سياسية بعد ما خفف من قيود الجمود الفكرى الذى عم العالم الاسلامى قرونا طويلة ودفع العقول للحركة والتفكير •

والمقصود من رد الفعل تيارات ضئيلة سارت سيرا بطيئا فتبلورت وأخذت طريقها الى الظهور فى اتجاهين ، فى الحركة الوطنية التى دعت الى القومية وفى دعاة الاصلاح الدينى الذين دعوا الى تجديد واصلاح المفاهيم الاسـلامية •

فالحركة الوطنية كانت نتيجة الاتصال بالعقل الأوروبى الذى اقتحم المنطقة بسلاحه • ذلك العقل الذى كونته الثورة الفرنسية وبعثت به الى أوروبا ثم الى الشرق • ففكرة الدولة القومية التى غيرت ملامح أوروبا تلقفها الشـباب فى الشرق وكتبها شعارا على علم التجديد الذى يحمله ، ووضع شعار الدولة القومية هـذا فى مواجهة شعار الوحدة الاسلامية •

وسرعان ما تبين أن دعوة الحركة الوطنية الى دولة قومية تناصب

فكرة عبد الحميد العداء ، اذ أن الوحدة الاسلامية التى وجدت عناصر مختلفة داخل حدود تركيا القديمة تجد نفسها مهددة فى صلبها بالدعوة الى القومية التى تقود كل شعب للانفصال عن تركيا .

وقام فى كل اقليم حركة وطنية تتخذ الدعوة الى القومية أساس وجودها ، فظهر حزب القوميين الأتراك ، والقوميين المصريين (تركيا الفتاة ومصر الفتاة) ... الخ وقويت فى المنطقة العربية أثناء الحرب العالمية حركة المقاومة ضد الباب العالى لانهاء الحقبة التاريخية للعالم الاسلامى ، حيث كان الطابع العام لحياة الشعوب دينيا ، فالدين هو الذى يرسم للأفراد وللمجتمع طريق حياتهم وأسلوب معاشهم ؛ وحيث كانت شريعة النبى [ﷺ] المرجع الأول لنظام الدولة ، تشرحه وتفسره وتقره ، قامت هـذه المقاومة للقضاء على ذلك واستبداله بقواعد قومية ، ومبادىء سياسية يقوم على أسسها نظام الدولة الجديدة .

وانطلاقا من هذا الموقف وتحقيقا لتلك المطالب كانت الحركة الوطنية فى كل مكان — حيث يوجـد قلاقل نتيجـة محاولتهم الوصـول الى أغراضهم — العـدو الأول لنظم الحـكومات ذات السـيادة المطلقة أو الحكومات المستبدة فى ظل ملكية ذات طابع الهى ، اذ أنها — أى الحركة الوطنية — كانت تعمل على تنفيذ برامج الاصلاح ، فان تعذر ذلك حاولت قلب هـذه الحكومات : لقد جرت محاولات للحد من سلطة المستبدين ذوى السلطة الفردية التى أضفت على نفسها ثوبا الهياً واستبدالها بنظم أكثر ممارسة للحرية وأقرب الى الديمقراطية يعطى الشعب فيها حق ممارسة السـلطة ، اذ أخذت هـذه النظم « نموذج الديمقراطية الأوروبية » مثلا لها . فى ظل هـذه التجربة ، تجربة مشاركة الشعب — الذى ما زال مكلوما ومنطويا على نفسه — فى الحكم ، كان لابد أن يشارك الشعب أيضا فى الدفاع ضد البلاد الغربية التى اقتحمت أوطان الشرق ؛ نمت الحركة الوطنيـة كما وكيفا ، وازدادت أهميتهـا بمقدار ما ينفذ من اصلاحات وبمدى تأثير الفكر الأوروبى فى عقول الحاكمين ، ولا ريب فقد كان تأثير الفكر الأوروبى لدى الطبقة الحاكمة فى ازدياد مستمر :

فقد طبق نظام التربية والتعليم الأوروبى ، وظهرت اثر ذلك قضية أطلقوا عليها تحويل الشرق الى أوروبا ، ويقصدون بذلك أن الشرق سيصبح بهذه الطريقة كأوروبا يفكر كما يفكر الأوروبيون ؛ وهم مخطئون فى ذلك ، فقضية الاحيـــاء والتجديد فى الشرق تعتمد أساسا على قدرة العقل الشرقى ، ويستعمل فيها النموذج الأوروبى ، والشرقيون يقلدون الغرب دون أن يفكروا تفكيرا غربيا ، لأن طريقة التفكير الأوروبى التى توجد فيها الانسانية الأوروبية والثقافة المسيحية لا توجد لدى الشرقيين[1] .

تبلورت الحركة الوطنيـــة الى مذهب له أيديولوجيته وله مفكرون يدافعون عنه اتخذوا اقامة الدولة القومية هدفهم السياسى ، وبجانب هـــذا التيار ظهر اتجاه مضاد شق طريقا آخر غير طريق القومية ، واتخذ الاصلاح الدينى وتجديد مفاهيم الاسلام قاعدة انطلاقه ، الاسلام يجب أن يحرر من جموده كى يعبىء قواه الذاتية للدفاع ضد الغرب ؛ فهو قوة يمكن أن توقف زحف التيارات الاستعمارية . لقد تنبه المسلمون الى أن الاسلام ليس طقوسا للعبادة فحسب ، ولم يقتصر فقط على المجالات الكنيسية بل شملت تعاليمه أيضا نظما سياسية واجتماعية ، الا أن هذه التعاليم التى لها القدرة على دفع المجتمعات الى التطور ظلت حبيســـة هـــذا الجمود ، وحال بينها وبين تفاعلها فى المجتمع اتجاهات انطوائية ، وآراء بعيدة عن روح الاسلام ، لقد خطا العالم خطوات واسعة عبر قرون طويلة ، وبلاد الاسلام جمدت مكانها لأسباب خارجة عن الاسلام .

وهكذا بان للمسلمين أن واجبهم الأول هو احياء الأفكار الاسلامية الأولى مرة أخرى كى يستفاد منها فى عالم سريع خطواته على طريق التقدم ، وعرض المبادىء التى خلقت المجتمع الأول فى عصر النبى والخلفاء الراشدين وازالة التراب الذى تراكم عليها بمرور القرون ، وتفتيت خيوط العنكبوت التى نسجت حولها من جراء الأحداث التى عاصرتها عبر هذه

---

(١) يكفى للرد على هـــذا : الرجوع الى ما انتجه العقل الاسلامى فى عصر صدر الاسلام فى جميع النواحى الفكرية المختلفة . (م . ش) .

القرون الطويلة • وأراد المسلمون بذلك بعث النشاط فى القيم الروحية التى احتوتها تعاليم محمد [ﷺ] لتكون صالحة للتطبيق فى العصر الحاضر ، عصر التكنولوجيا •

واتجهوا هـــذا الاتجاه لأنهم اعتقدوا أنه لا يمكن خلق مقومات للدفاع الايجابى ضد الغرب الا عن طريق اصلاح دينى ونهضة روحية بين الشعب • فقد تبخرت آثار الدعوة الى الوحدة الاسلامية التى كانت توجهها أهداف سياسية ولم يكتب النجاح لها لأنها لم تستطع استخدام الاسلام فى مواجهة الحضارة الغربية ، وعجزت عن اثبات أن النظام الاجتماعى فى الاسلام يتقبل مظاهر الحياة الحديثة ، كذلك فشلت جهود الوحدة الاسلامية فى التوفيق بين تعاليم الاسلام ومتطلبات المدنية •

الوطنية والاصلاح الدينى : شعاران لاتجاهين ظهرا فى الشرق نتيجة عودة المواجهة مع أوروبا ، وتطور اتجاههما الفكرى تحت ظروف الرغبة فى صد هـــذا الهجوم الاستعمارى : ففتح المنطقة الاسلامية أمام القوى الغربية أنذر بضياع الكيان السياسى لدول هـــذه المنطقة • فى هـــذه الفترة ــ أعنى فترة عودة المواجهة مع أوروبا ــ أصيب الشرق اصابة مباشرة تهاوت على أثرها أبنيته السياسية ، رغم المحاولات اليائسة التى بذلتها الحكومة « الالهية »[1] الاسلامية للدفاع عن كيانها ، ورغم جهود الطبقات الحاكمة للحفاظ على امتيازاتها : الوطنية والاصلاح الدينى، أو القومية والنهضة ، ظهرا فى المجتمع الاسلامى قبل الحرب بعشرات السنين ، وأصبحا بعد الانهيار السياسى فى الشرق أثناء الحرب العالمية عنصرى تكوين تلك القوة التى أقامت البناء الحديث للدولة فى العالم الاسلامى • أقامته من تلك الأنقاض التى خلفتها معاول البلاد الغربية • وتعتبر القومية والنهضة من أهم عوامل ظهور القومية الاسلامية التى ترفع اليوم من جديد على واجهة العالم الاسلامى •

* * *

(١) لم يعرف المجتمع الاسلامى حكومة الهية كتلك التى يتصورها المسيحيون ؛ فالحاكم فرد من أفراد الشعب لا يتميز الا بقدرته التى تهيئه لتولى السلطة ؛ ولا تخرجه عن كونه انسانا . (م . ش) .

حاول الوطنيون فى وقت مبكر أن يكتسبوا الصفة الرسمية فى تركيا فبدأوا فى تمهيد طريقهم للوصول الى أغراضهم التى رسموها ، وأعلنوا مبادئهم السياسية ، وسرعان ما تحولت الهيئة الأوروبية التى انحصرت واجباتها فى العناية باللغة التركية الى جمعية ذات أهداف سياسية ، نظمت هذه الجمعية نفسها فى بداية ستينات القرن الماضى وجعلت هدفها الوصول الى تطبيق النظام الأوروبى « الليبرالى » فتنصلت — معتمدة — من الاتجاه الدينى واتخذت طريقها بعيدا عن الاسلام ، ثم حول الزعماء هذه الحركة الوطنية الى تركية متطرفة • قال مدحت باشا — زعيم هذه الحركة وأحد الشخصيات البارزة فيها ، بل أبرزها — فى عام ١٨٦٧ م : « لن تبنى الدولة التركية بعد أربعين أو خمسين سنة مساجد جديدة بل مدارس ومؤسسات اجتماعية » كان التصريح بهذا يعتبر مجازفة فى ذلك الوقت ، فضلا عن أنه كان تنبؤا بالتطور والتغيير الذى نراه اليوم حقيقة واقعة فى النظم المطبقة فى تركيا فى عهد كمال باشا •

فى عام ١٨٦٣ نجحت الحركة الوطنية فى تركيا لأول مرة فى تنظيم هيكلها السياسى — أطلقوا عليه حزب تركيا الفتاة — وأصدرت جريدة « المخبر Mukhbir »غير أنها صودرت ومنعت من الظهور بعد أعوام قليلة ، بينما اضطر مؤسسوها الى الهروب خارج البلاد وأقاموا فى باريس • ولم يتوقف نشاط الحركة الوطنية بنفى زعمائها ، فقد أستطاع الزعماء المنفيون أن ينظموا خلايا الحزب فى منفاهم ، وأصدروا جريدة فى المنفى كانت تهرب الى أعضاء الحزب عبر الحدود التركية • ونما حزب تركيا الفتاة واشتد نشاطه وقوى ، لدرجة أن الحكومة اضطرت فى عام ١٨٧٠ الى السماح بعودة المنفيين الى تركيا وعينت زعماءهم فى مناصب عامة فأصبح مدحت باشا محافظ اقليم • وعين زملاؤه أعضاء فى لجنة مسودة الدستور التركى — دستور عام ١٨٧٦ م •

توقف نشاط الحركة الوطنية وأصيب حزب تركيا الفتاة بنكسة أوقفت تقدمه نحو هدفه وذلك عندما صدر مرسوم الخلافة — أى أن سلطان

تركيا هو خليفة المسلمين — فعلى الرغم من أن عبد الحميد الثانى أظهر فى بدء عهده ميلا محدودا الى الحرية لم يعد ذلك على الحركة الوطنية بفائدة ، لأن هـذا الميل من عبد الحميد لم يكن سوى مناورة سياسية تجاه القوى الغربية كان القصد منهـا احتواء الرمال فى عيون البـلاد الأوروبية التى تضايقه ، يدل على ذلك أنه شايع الأهداف الرجعية وعارض فكرة الدعوة الى القومية التى ينادى بها الشباب التركى ، وقام بينه وبين زعماء الحركة الوطنية خلاف نشأ من دعوته الى الوحدة الاسـلامية ونشاطه لاحياء الخلافة •

تطور الخلاف الى صدام ، واضطر مدحت باشا وزملاؤه الى ترك البـلاد فى عام ١٨٧٧ م ، وتأكد عبد الحميد أن الحركة الوطنية تبغى النيـل من حقوق العرش والقضاء على المملكة العثمانية التى تقف وراءها غالبيـة الشعب ، فأمر بتعقب أعضـاء الحزب دون هوادة ، واستمرت مطاردتهم أكثر من عشرين سنة وقد أطلق على عبد الحميد : « السلطان الأحمر » لما قام من تنكيل وتعذيب وتشريد أعضاء حزب تركيا الفتاة • كما اتخذ الاسلام طريقا للقضاء على فكرة القومية ، فالاسلام لا يعرف حدودا بين المسلمين ولا يقر انفصالية تعتمد على أساس القومية ، ولكى يدعم عبد الحميد فكرته دعا الى احياء الخلافة كواجهة سياسية للاسلام ، ولا شك أن الخلافة تذكر المسلمين بمجد الدولة الاسـلامية فى عصر صدر الاسـلام •

استبد عبد الحميد استبدادا لا مثيل له ، وفاقت الاضطهادات كل تصور ، فهرب الآلاف من الشـباب التركى الى خارج الوطن ، وانزوى كثير الى الأقاليم التركيـة البعيدة مطرودين • ولكن رغم كل هـذه الاضطهادات فقد استمر التنظيم السرى لحزب تركيا الفتاة فى نشاطه وازداد عـدد المنتسبين اليه ، وأصبحت الأقاليم التى يعيش فيها هؤلاء المطرودون واقعة تحت تأثير الحـركة الوطنية • لقد سرى تأثيرها بين المواطنين سريان المـاء تحت التبن — أى فى خفاء — وتفاعلت أفكارهم مع الشعب كما تتفاعل الخميرة مع العجين ببطء ، ولكن تدفعه الى الفوران

لا محالة ، فلم تكن مرارة الكفاح — الذى استمر سنينا طويلة — أقسى ولا أوضح مما فعله عبد الحميد مع زعيم الحركة الوطنية مدحت باشا ، استدعاه السلطان من المنفى فى عام ١٨٨٢ م وعينه واليا على سوريا ، ولم يكن هـذا العمل الا استرضاء ظاهريا وخدعة من السلطان للقضاء عليـه ، اذ لم يمض غير وقت قليل على استلام عمله حتى اتهم بأن له يدا فى اغتيال السلطان عبد العزيز — سلف عبد الحميد — وأدين مدحت باشا أمام المحكمة فى القسطنطينية بأنه مذنب وحكم عليـه بالاعدام وظن عبد الحميد أنه بهذه الطريقة يستطيع التخلص من عدوه الخطير بطريقة قانونية ، ولكن انجلترا تدخلت وحالت دون هـذا الحكم الجائر ، وهكذا لم يستطع عبد الحميد أن يرد وساطة الانجليز وخضع للقوة الأكبر منه ، وأرسل مدحت الى المنفى ، ولم يكن منفاه فى هـذه المرة باريس بل داخل البلاد العربية ، مدينة الطائف ، وهناك مات مخنوقا بايعاز من السلطان عام ١٨٨٤ م .

استعمل عبد الحميد طرقا متعددة لتعقب دعاة القوميـة ، أرسل جواسيسه الى خارج البلاد — حيث تظهر تنظيمات لحزب تركيا الفتاة — ليختطفوا الزعماء ويرسلوهم الى تركيا حيث يقضى عليهم ، وحاول عن طريق الرشوة بالمـال أن يصل الى القضاء على هذه التنظيمات ، فالمـال كان وسـيلة فى البلاد التى لا تخضع لنفوذه يحقق له نفس الهدف الذى يصل اليه بالقوة والعنف داخل حدود تركيا .

ورغم هذا فقد نجحت الحركة الوطنية نجاحا كبيرا ، وازداد انتشار فكرة القومية ونمت وظهرت براعمها وتحولت فيما بعد الى ثورة ضد نظام عبد الحميد الاستبدادى . ولقد أثبتت بهذا مدى تقـدم فكرة الدعوة الى القومية وسريانها بين الشـعوب التى كانت حكم المملكـة العثمانية ، ففى مؤتمر باريس الذى عقد لتنظيم المقاومة ضد عبد الحميد ، ظهرت لأول مرة خلافات شعوبية داخل صفوف المعارضين للسلطان . ولكن فيما بعد توصل المؤتمرون — وهم اليونانيون والبلغاريون والألبانيون

والأتراك الذين يضطهدهم عبـد الحميد — فى عام ١٩٠٧ م الى وضع برنامج جماعى وتأليف لجنـة مشتركة لتنظيم العمل المشترك وهو تنحية عبـد الحميد ، وينص هـذا البرنامج على اصلاح المملكـة العثمانية — بعد تنحية السلطان — على أساس المساواة بين جميع الشعوب التى تمثل فى هـذه اللجنـة •

لقد نظمت المقاومة ضد السلطة الدينية التى كان يمثلها عبد الحميد وتجمعت عناصرها خارج حدود تركيا الا أنها لم تستطع المبادرة ، بقيادة المعركة الفاصلة ضده ، بل جاءت هـذه المعركة أولا من الداخل وعلى وجه التحديد من داخل الجيش الذى أصابته عدوى الأفكار القوميـة •

هيأت سياسة التقارب بين الدول الغربية الجو للقوميين للانقضاض على حكم عبد الحميد ، ففى عام ١٩٠٦ عقد الروسيون والنمسيون مؤتمرا فى « مورتس شتيج Mürzsteg » لبحث مستقبل مقدونيا • وبعد ذلك بعام انضمت روسيا الى حلف « التفاهم » على سياسة موحدة تجاه مناطق النفوذ فى الشرق الأوسط المعقود بين انجلترا وفرنسا • هذه السياسة — سياسة التفاهم على تقسيم مناطق النفوذ — سدت الطريق الذى كان يسلكه عبد الحميد ، اذ أنه كان يستفيد من الخلافات القائمة بين البلاد الغربية للدفاع عن نفسه • وأعقب هـذا التفاهم ظهور خطر مباشر على تركيا ، وفى هذا الجو تكونت مجموعة سرية — كانت من أقوى المجموعات المناهضة لعبد الحميد — من المقدونيين للدفاع عن مصالحهم ، وكانت على اتصال بالمقدونيين فى سرايا الجيش ، وفى عام ١٩٠٨ كان استعدادهم كاملا وتنظيماتهم على أهبة القيام بالثورة •

فى ٤ يوليو ١٩٠٨ م هبت العاصفة ضد عبد الحميد وضد الأفكار السياسية التى كان يمثلها واتجه الثوار الى المقدونيين بأن قاموا بحملة دعائية واسعة النطاق بينهم ، شرحوا فيها الأخطار التى تهدد البلد من جراء سياسة الحكومة المركزية فى القسطنطينية ، وبذلك أثاروا الشعور الوطنى بشكل سافر لأول مرة ، ويعتبر هـذا منهجا جديدا فى اللغـة

السياسية للشرق • وفى غضون أسبوعين من اعلان الثورة كانت مقدونيا فى يد الثوار الذين اغتالوا كبار الضباط الموالين للسلطان • وحاول عبد الحميد قمع الثورة غير أن هـذه المحاولة أظهرت تخلف سياسته وخلوها من مضمون تعتمد عليـه ، لأنه عندما أراد أن يقذف بقوات من داخل الأناضول ليكافحوا ضد الثوار فى الشمال بان للرأى العام أن جيشا مسلما يزحف ضد مسلمين ، وأن المسلمين يقاتل بعضهم البعض ، الأمر الذى يحرمه الاسلام • فجمع عبد الحميد العلمـاء لاستصدار فتـوى تحل له ذلك ، فما كان من المجلس — الذى يعتبر أعلى مجلس شورى فى المسائل الدينية — الا أن أصدر فتوى تحرم على المسلم أن يشهر السلاح فى وجه أخيه المسلم •

أمنت هـذه الفتوى النصر الذى أحرزه الثوار • ووضعت القومية أفكارها فى هـذه الثورة الوطنية لأول مرة موضع التنفيذ حيث أخذت شكلا سياسيا • وعاد دستور عام ١٨٧٦ م — الذى أسهم فى وضعه الزعماء الوطنيون وعلى رأسهم شهيد الوطنية مدحت باشا — مرة أخرى ، فعم الابتهاج والسرور البلاد ، وفاق تهليل الشعب وفرحه كل وصف ، ولكن هـذا لم يدم طويلا ، فقد نشر الغم أجنحته عليهم اثر الانقسام الذى وقع فى صفوف الثوار بسبب الاختلاف فى الرأى ، وهكذا تبين لكثير من الشباب التركى خطورة عدم وضوح الرؤية فى تطبيق الأفكار التى كافحوا من أجلها عشرات السنين • اذ أنه عند تطبيقها سياسيا انقسم الوطنيون الى مجموعتين : مجموعة معتدلة فى مطالبها أرادت الكفاح فى ركب مبادىء القومية لنيل مآرب ابتغوها ، ودعاية أرادوا الوصول اليها ، ولهذا رأوا عدم تقسيم المملكة التركية والحفاظ على الادارة المركزية، فهى ضرورية ، وأمر لابد منه لبقاء تركيا كما هى ، ورموا بهذا الى تبخير الأفكار القومية وترك تيارها يسيل فى صحراء تبتلع رمالها ماءه •

أما المجموعة الأخرى فتمسكت بتنفيذ مبادىء القومية غير ناظرة الى ما ينتج عن ذلك من تفكك المملكة التركية ، ولم تقم له وزنا ، ولهذا احتكت احتكاكا مباشرا ببقاء المملكة •

أراد عبد الحميد أن يستغل هذا الخلاف فقام بمحاولة مضادة للثورة وانضم لهذه المحاولة — فكريا — جزء من الجيش وجزء كبير من الشعب الذى لا زال يعيش داخل اطار العهود الغابرة ، وبأفكار التقاليد القديمة والعادات الموروثة • وكان الاسلام محور هذه الدعوة التى اتخذت أساسا لبناء الدولة ، كى ينفذ حكم عبد الحميد من الخطر المحدق به ، غير أن الفشل لحق بهذه المحاولة وفقد عبد الحميد عرشه وما هو متصل بالعرش ، أعنى الخلافة •

بدأ التفتيت النهائى للمملكة الكبرى فى تركيا القديمة عندما تولى الوطنيون السلطة فى تركيا ، وأصبحت فكرة الدولة القومية — التى كانت شعار الكفاح ضد استبداد عبد الحميد — كلمة سحرية للانهيار السياسى ، وتسببت فى قيام سلسلة من القلاقل التى أدت الى نكسه فى الحرب العالمية ، حيث تفتتت أوصال الدولة نهائيا وسقطت المملكة العثمانية حطاما ، لتفسح الطريق لقيام دول حديثة تختلف فى نظمها عما سبقها •

ولم يعد ينحصر العدو الرئيسى للوطنيين فى تركيا فى البلاد الأوروبية التى تتقدم بدون رحمة لتحصل على مزيد من الامتيازات تمكن نفوذها ، بل فى قومية الشعوب التى عاشت فى اطار المملكة العثمانية ، فموقف الوطنيين الأتراك من عبد الحميد وكفاحهم الطويل للوصول الى تطبيق المبادىء القومية فى تركيا انعكس على الشعوب الأخرى ، واتخذت الشعوب العربية فى الجنوب والجنوب الشرقى هذه المبادىء نموذجا وأساسا للدعوة الى الانفصال عن تركيا ، فسادت القلاقل المنطقة العربية ، وقام العرب بثورة ضد أولئك الذين وقفوا فى طريق الحرية العربية ، وضد الذين عارضوا فكرة حصول العرب على الحكم الذاتى : أى ضد الوطنيين فى تركيا لأنهم عارضوا فكرة قيام الدولة على أساس قومى • اذ حرموها على غيرهم فى حين أنها أساس « الأيديولوجية » التى نادوا بها ، لم يسمحوا بها حيث رأوا أنها ضارة بمصالح تركيا كدولة كبرى • وعليه فقد اضطهدت حكومة الوطنيين فى تركيا جميع الحركات العربية التى تنادى بالانفصال ، واتسم اضطهادهم بالشدة والقسوة ، فرسموا

خطة لطبع كل الأجزاء غير التركية فى المملكة بالطابع التركى ، واتخذوا اجراءات تنفيذها بطريقة منظمة وشاملة • غير أن الضغط على هـذه الأقاليم غير التركية ولد ضغطا مضادا ، فانطلقت فى البلاد العربية دعاية ضد كل ما هو تركى ، فتكونت منظمات سرية فيها — وخاصة فى سوريا حيث توجد نسبة كبيرة من المثقفين — الدعوة الى القومية العربية ، وكان هدف هـذه الدعوة فصل البلاد العربية عن تركيا • أيدت انجلترا هذا الطموح السياسى للعرب ضد القسطنطينية ، ورأت أن الوقت قد حان لتنفيذ خططها الاستعمارية ، بعد أن تفاهمت مع روسيا حول منطقة العبور فى غرب آسيا • وسبق هـذا التأييد تحركات غير مرئية لانجلترا ، فقد كان السوريون قبل الحرب العالمية على اتصال باللورد كتشنر المندوب السامى البريطانى فى مصر الذى كان يرى — وظل معتنقا هـذا الرأى مدة طويلة — أن تحقق رغبة سوريا فى الانفصال عن الباب العالى ، غير أن لندن كانت تومىء بالرفض لأن الوقت لم يكن مناسبا آنذاك •

ولم يتصل القوميون السوريون وحدهم باللورد « كتشنر » كى يكسبوا قوة غربية ويضمنوا مساعدتها ضد الوطنيين فى تركيا ، بل اتصل به أيضا ممثل الشريف حسين الذى كان أمير مكة آنذاك ، فقد أرسل اليه ابنه الأكبر الذى يتولى امارة شرق الأردن الآن • وعرض الأمير على كيتشنر المشروعات العربية التى تهدف الى خلع نفوذ تركيا من البـلاد العربية لتحرير المنطقة من العبودية التركية • وهكذا كان للثورة الوطنية أثر فى داخل البلاد العربية • اذ فجرت قضية القومية العربية التى انتهت فى عام ١٩١٦ م بتلك الثورة التى قادها المعتمد الانجليزى لورانس • لقد طعنت الثورة العربية المملكة التركية طعنة موت ، كما يطعن الرجل حيوانا مريضا لا سبيل الى علاجه ، ففى ازهاق روحه ألم ، ولكنه ألم يريحه من عناء مرض أنهكه •

* * *

وفى مصر — البلد الذى يخضع منذ عام ١٨٨٢ م • لرقابة انجليزية شديدة — سارت الحركة الوطنية فى خط مواز لمثيلتها فى تركيا • فقد

دعا الوطنيون الى تكوين حكومة وطنية (قومية) ولم تكن جهودهم موجهة فقط ضد طبقة الحكام الرجعيين أصحاب السيادة المطلقة ، بل أعلنوا معارضتهم للاستعمار الأجنبى ، واصطدموا بطريق مباشر بقوة استعمارية غربية : بريطانيا التى عرفت كيف تستخدم الخديوى وحكومته لتحقيق مطامعها الاستعمارية وكيف تتخذه وحكومته ستارا بينها وبين الشعب المصرى الذى انضم لصفوف الحركة الوطنية ، هـذا الصدام المباشر بين مطامع الاستعمار الغربى وبين الحركة الوطنية — التى كانت تريد اقامة دولة قومية — ظهر فى مصر فى وقت مبكر ثم انتشر بعد الحرب العالمية فى الأجزاء الأخرى من العالم العربى فظهرت حركات مماثلة للحركة الوطنية فى مصر •

كانت الثورة التى قادها عرابى فى عام ١٨٨٢ م — أدت هذه الثورة الى احتلال القوات البريطانية بلد النيل — فى مبدأ أمرها حركة تمرد من الفلاحين المصريين الذين دفعهم الاضطهاد والظلم والفقر الى القيام بهذه الثورة ، فأفكارها نبعت من البيئة ، والظروف الاجتماعية هى التى حركتها • أما الحركة الوطنية التى ارتفعت أسهمها فى نهاية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين فقد نبتت فى تربة النفوذ الأوروبى فى البـلاد الشرقية وخرج سلاحها الفكرى من « ترسانة » الديمقراطية الفرنسية • وكان تفكير الوطنيين فى مصر مطبوعا بطابع أوروبى وغايتهم تطبيق نموذج الديمقراطية الأوروبية لأنهم تأثروا بها مدة اقامتهم فى أوروبا — أرسلوا للدراسة فعادوا الى الوطن وهم يحملون الرغبة فى نشر نظم الحضارة الغربية فى مصر ، وتكونت منهم الحركة الوطنية •

وكان مصطفى كامل من زعماء الحركة الوطنية الذين تعاطفوا مع اخوانهم فى تركيا دون أن يظهروا أنفسهم بمظهر العداوة للاسلام • درس فى فرنسـا وأصبح بعد عودته الى الوطن زعيما لمجموعة من الشباب استولت عليهم أفكار أوروبا ، ولكنهم ظلوا على أرض وطنهم يغرسون هـذه الأفكار بطريقتهم الخاصة • تملكهم الشعور بضرورة التخلص من الاستعمار ورأوا أن الواجب الأول ينحصر فى تحرير الوطن سالكين كل

سبيل ومستعملين كل وسيلة ، فقد أصبح هـذا المفهوم « الوطن » فكرة حية لدى الجميع ، ورمزا مطبوعا فى أذهان الكثيرين الذين دفعتهم الرغبة الى الكفاح من أجله ليأخذوا هذه الأماكن التى يحتلها الأجانب ، ويتقلدوا الوظائف التى يستأثر بها الدخيل ، ويرتفعوا الى المقام الذى يتمتع به الأوروبى القادم مع جيش الاحتلال •

أصـدر مصطفى كامل فى عام ١٨٩٥ م نشرة صـغيرة بعنوان « مصر الحرة Libéral égyptien » حدد فيها معالم الدولة القومية المصرية التى يسعى لتحقيقها ، يظهر ذلك واضحا فى قوله : « أريد أن أبعث الوطنية فى بنى وطنى ، التى تعيد مصر للمصريين والمصريين لمصر » • وأسس جريدة اللواء فى مستهل القرن العشرين ، حملت أفكاره فى مفهوم الوطنية ، وأوصلت الى القارىء معارضته للاحتلال البريطانى ، فانتشرت بسرعة ، وازداد عدد قرائها • وتبلورت الحركة الوطنية فى تنظيمين سياسيين : الحزب الوطنى الذى تزعمه مصطفى كامل ، وحزب الأمة الذى تزعمه سعد زغلول باشا • وفى عام ١٩٠٧ تآلف الحزبان وكونا جبهة سياسية متينة رسمت برنامجها السياسى على أسـاس الدعوة الى الاستقلال وجلاء الجيش الانجليزى من مصر بدون تراخ • وقد عارض هـذا البرنامج حزب الدستوريين ، لأن أعضاءه رأوا أن انحسار النفوذ الانجليزى يمكن أن يتم بطريقة تدريجية ، ويحتاج الى زمن طويل ، يجرى فيه توسيع سـلطة الدولة المصرية مقابل الانحسار التدريجى للنفوذ البريطانى •

لم تهتم الوطنية المصرية بالاسلام ، ولم تأخذه كوسيلة لتحقيق أغراضها السياسية كما فعل عبد الحميد ، بل أظهرت فقط عدم معارضتها له ، وأنها لا تنوى التخلص منه ، هـذا الموقف السلبى من الاسلام حصرها بشكل واضح فى الطبقة المثقفة ففقدت قاعدة الشعب العريضة ، وفقدت معها القوة الدافعة لها على طريق تحقيق أهدافها ، وكانت فى أشد الحاجة الى شعور الأمة وقوة الشعب عندما اصطدمت بصخرة مقاومة السلطة البريطانية • وهكذا كان التأثير العملى المباشر للحركة الوطنية المصرية ـ

من ناحية قياس نجاحها السياسى — غير جوهرى ، اذ كان محدودا ، ورغم هـذا فقد حققت بمرور الزمن نجاحا مستمرا ، وحفرت لها قنوات بين صفوف الشعوب عندما ركزت دعايتها على الدور الذى قام به زعماؤها فى سبيل الوطن ، وتمثل ذلك فى نشاط قادة الحركة الوطنية بزعامة سعد زغلول باشا ، الذى أدى الى نفيهم ، فاندلعت الثورة ، وكان اشتراك الشعب فيها دليلا على أن الحركة الوطنية وجدت طريقها بين الجماهير .

مات مصطفى كامل فى العام الذى قامت فيه ثورة الحركة الوطنية فى مقدونية واشترك فى تشييع جنازته جمع غفير ، سار فيها أعداد هائلة من جميع الأوساط ، وبان للمراقبين أن هذا الشاب — الذى مات صغيرا — احتل فى قلوب أبناء أمته مكانا مرموقا ، وأن دعوته الى الوطنية اكتسبت أنصارا من جميع مستويات الشعب ، واعتنق فكرته — التى تدعو الى انشـاء دولة قومية مصرية — كثير من المصريين ، ويذكر معاصروه أن الشعب المصرى رافق جثمان الزعيم رائد الحركة الوطنية المصرية فى وحـدة لم تعرف من قبل .

لم يكافح ثوار مصر فى جبهة واحـدة — كما ذكرت سابقا — بل اضطروا الى مواجهة عدوين : انجلترا ، وعملائهم من المصريين ، فلم يقتصر برنامجهم على الاصلاح الوطنى والتحرر من استبداد الحكام ، بل واجهوا أيضا بريطانيا ، وكان هـذا سبب فشلهم لعدم التكافؤ بينهم وبين قوة أعدائهم الغربيين . هؤلاء الأعداء الغربيون استمروا فى تفوقهم على الوطنيين حتى بعد الحرب العالمية ، عندما زعزع الترابط القوى الذى نشأ بين الطبقات المثقفة والفلاحين مركزهم ، لأن هؤلاء الفلاحين يمثلون السواد الأعظم من الشعب ، ولا تعبئهم الشعارات الوطنية ولا المبادىء الديموقراطية ، وانما تبعث فيهم روح الكفاح ، وتعبئهم للثورة الدعوة الى احياء تعاليم الاسلام .

* * *

كذلك وجدت الحركة الوطنية التركية صدى لها فى ايران ، فكما رفع

فى تركيا الشعار « تركيا للأتراك » ، وعلى ضفاف النيل « مصر للمصريين » كتبت فى ايران كلمة « ايران للايرانيين » على أعلام الدعوة الى النهضة • وكانت الثورة الروسية فى عام ١٩٠٥ ضد الاستبداد القيصرى أهم الأحداث التى ساعدت التيارات الوطنية فى ايران على الظهور فى بداية القرن العشرين ، فقد أعطت القوميين الايرانيين — الذين تملكهم الشعور بالحركة كما كان لدى زملائهم الحزبيين فى تركيا وفى مصر فى وقت واحد — اشارة الانطلاق ، وانحصرت مطالب الحركة الوطنية فى ايران — أطلقت عليها الجريدة الايرانية « الحبل المتين » مطالب الشباب الوطنى الايرانى ، وظهر هذا الاسم لأول مرة فى سبتمبر ١٩٠٨ م — فى القضاء على استبداد الشاه الذى أفسد البلد ، وباشراك المثقفين فى الحكم ، وتحرير البلاد من التبعية للروس والانجليز ، الذين منحهم الشاه حقوقا وامتيازات واسعة ، ولا زال منح هذه الامتيازات مستمرا ، وكل ذلك على حساب حقوق الايرانيين التى تضيق دائرتها من عام لآخر •

وتمتاز الحركة الوطنية فى ايران عن مثيلتها فى تركيا وفى مصر أنها ارتبطت منذ وقت مبكر بعدد كبير من الزعماء الروحيين من طائفة الشيعة ، بينما وقفت الحركة الوطنية فى تركيا موقفا معارضا لعلماء الدين ، وقامت خلافات حادة بين الوطنيين وعلماء الدين ، أما فى مصر فكان موقف المهادنة •

بدأت الثورة الوطنية فى ايران بالقيام بمظاهرة دينية — قاموا بما يسمونه « Bast » — اعتصم المتظاهرون فى المسجد وأعلنوا استمرار الاعتصام حتى تنفذ مطالبهم التى من أجلها تظاهروا • وبمثل هذه المظاهرة فتح باب الكفاح ضد استبداد الشاه فى ديسمبر ١٩٠٥ ، أى بعد أشهر قلائل من اطلاق رصاصات الثورة الروسية فى بطرسبورج • وطالب علماء الشيعة بالاشتراك فى تقرير شئون الدولة على أساس من القرآن وأحكام الشريعة المستنبطة منه ؛ عارض الشاه هذه المطالب وسانده فى ذلك رجال بلاطه ، فترك العلماء طهران وهاجروا الى المدينة المقدسة : « قم » حيث مسجد فاطمة ذى القباب المرصعة بالذهب فاتخذوها

منفى لهم • وتعاطفت دوائر شعبية واسعة مع هـذا الاحتجاج ، فأغلقوا حوانيتهم ودخلوا المساجد وأعلنوا الاعتصام ويعتبر هـذا أول اضراب عام فى تاريخ ايران •

وافق الشاه مظفر الدين على تنفيذ مطالب العلماء ، ووعد بالاعتراف بالدستور الذى يعطى الشعب حقوقه ، ويؤمن حياته حتى يتفادى النتائج التى تترتب على القلاقل التى اندلعت فى طهران نتيجة ترك الملا لها واقامته فى « قم » ، وأعلن الملا — وهو فى قم — انتهاء الاعتصام ، ثم عاد العلماء الى طهران ، غير أن الشاه لم يف بوعده ، وبعد مصادمات عنيفة فى طهران ، بدأ الاعتصام مرة أخرى فى « قم » احتجاجا على هـذا الموقف ، وأغلقت المحلات فى العاصـمة ، وواصل الأهالى اعتصامهم بالمسـاجد •

عندما رجا الشاه العلماء — للمرة الثانية — انهاء الاضراب والعودة الى طهران احتفلت الثورة الوطنية بأول انتصار لها ، اذ وافق الشاه على المطالب التى كان أهمها وضع دستور للبلاد ، وتمثيل الشعب فى المجلس الملكى الذى كان يطلق عليـه « منزل العدالة » ، وكان أول برلمان ايرانى جاء نتيجة الثورة الوطنية اجتمع فى أكتوبر ١٩٠٦ م وناقش مسودة الدستور ، وانتهى من صيغته ، فوقع عليـه مظفر الدين ، وكان آخر وثيقة من وثائق الدولة يوقعها الشاه •

خلف مظفر الدين على العرش الايرانى ابنه محمد على الذى كان رجعيا بأقصى ما تدل عليه هـذه الكلمة ، وعدواً للحركة الوطنية الايرانية، ولم يكد محمد يتولى الحكم حتى اصطدم مع البرلمان الجديد ، ورمى من وراء هـذا الصدام جس نبض القوة الوطنية فى البرلمان •

فى ٣١ أغسطس ١٩٠٧ م أذيع فى طهران نصوص المعاهدة التى عقدت بين روسيا وانجلترا ، وقـد نص فيها على تقسيم ايران الى منطقة نفوذ روسية وأخرى انجليزية ، وبدت هـذه المعاهدة وكأنها قد كسرت العصا الموجهة لمستقبل شعب هـذا البلد ، وفى نفس اليـوم

اغتيل رئيس الوزراء الذى كان يساند الشاه المستبد فى موقفه عند اصطدامه مع البرلمان ، وكان الجانى شاب ايرانى من تبريز انتحر اثر ارتكابه الحادث ، فمحا معالم مسئولية قتل رئيس الوزراء ، وان كان الوطنيون عدوه من الأبطال واحتفلوا بيوم بطولته .

وقد أزعجت الطلقة التى أزهقت روح رئيس الوزراء الشاه ، وأدخلت فى قلبه الرعب ، فتراجع عن موقفه الرجعى حينما شعر أن الجو معبأ فى طهران وينذر بالانفجار . فأعلن — بعد حادث الاغتيال مباشرة — استعداده أن يقسم أمام البرلمان على احترام الدستور الذى وقعه والده تحت ضغط الشعب .

ساد الهدوء فترة . وتأجل حل النزاع جذريا ، ولم يكن هذا استسلاما نهائيا من جانب الشاه بأى حال من الأحوال ، لأنه أحس بشعبية الوطنيين وعرف أن جذورهم تمتد فى باطن أرض ايران ، وأنهم ينخرون عرشه فى خفية من أعين رقبائه ، ولهذا أعطى البرلمان مهلة نهائية وتحذيرا أخيرا ، لاصدار قرار بحل المنظمات السياسية السرية . ولكن الوطنيين رفضوا هذا الطلب ، وكان اجابة الشاه على هذا الرفض استعمال القوة كما استعملها سلفه . وعبأ حزب القصر الرجعى الجماهير للثورة ضد الوطنيين واستعملوا النفوذ والوشاية وأعطوا وعودا سخية ، فثار الغوغاء ، وصبوا غضبهم على مبنى البرلمان ، وحولوه الى أنقاض .

ولكن الوطنيين الفارسيين لم يستسلموا ، فقد كانوا يتمتعون بنفوذ كبير فى الأقاليم ، فبدأوا فى تنظيم مجموعات فدائية خارج العاصمة أعدوها للزحف على طهران كى يدافعوا عن الدستور .

وتراجع الشاه محمد على مرة ثانية ، وأعلن ولاءه للدستور . ولكنه فى نفس الوقت طلب — بطريقة علنية — مساعدة روسية فى الصراع السياسى الداخلى فقدمت روسيا وانجلترا — اللتان كانتا تنتظران اشارة للتدخل كى تؤمنا مصالحهما — مساعدات ضخمة للشاه فى اجراءاته الاستثنائية ومحاولات القمع التى قام بها فى صيف عام ١٩١٨ م .

فقد اقتحم البرلمـان — الذى تحصن فيه الوطنيون — جنود القوقاز الروسيين الذين استدعاهم الشاه وأحرقوه وسط تهليل الرجعيين فى طهران ، واحتفالهم بالانتصار على الوطنيين بمساعدة القوة الاستعمارية وهكذا تغلب أولئك الذين كانوا أداة للجنود والأجانب وعملاء الاستعمار •

ألغى الدستور فى العاصمة ، لكن هـذا الالغاء لم يصادف نجاحا فى الأقاليم ، ومن هنا بدأت حركة مضادة ، ففى شمال البلاد فى تبريز ، ورشت ، وكذلك فى الجنوب فى أصفهان تجمع الثوار الذين ضربوا فى العاصمة ، وبدأوا الزحف على طهران • سقطت العاصمة مرة أخرى فى يد الثوار بعد مضى شـهر واحد من اتخاذ الاجراءات الاستثنائية الثانية التى قادها الشاه فى العاصمة • واجتمع البرلمان مرة ثانية وأعلن عزل الشاه محمد على عن العرش وعين مكانه ابنه أحمد الذى لم يبلغ سن الرشد ، ومكن الوسطاء من الانجليز والروس الجبار المخلوع من الهرب الى الخارج • وبعد خمسة أشـهر من الزحف على طهران افتتح البرلمان الايرانى الثانى وكان افتتاحه فى نوفمبر ١٩٠٩ م •

بقيت آثار الاجراءات التى أفقدت الشاه عرشه ، ولم ترفع رغم هروبه الى الخارج فلم تبرح القوات القوقازية الروسية — التى استدعاها هو لمساعدته ضد الوطنيين — شمال ايران ، وبقيت على أرض ايران عشرين عاما حتى سحبتها الثورة البلشفية ، وهـذا يدل على مدى ضعف الدولة الايرانية التى أعقبت خلع الشاه •

وقد دفع وجود القوات الروسية فى شمال ايران انجلترا الى المطالبة بالسماح لها بارسال ضباط انجليز الى المخافر فى جنوب ايران ، وتحت ضغط السيطرة البريطانية ووفق على هـذا الطلب ، وبهذا أصبح جليا أن مصير فارس فى أيد أجنبيـة ، وأنه قد طبع بطابع اسـتعمارى لا يستطيع الفكاك منه •

قام الشاه محمد على بمحاولة من منفاه لاستعادة عرشه — وحدث ذلك بعد عامين من خلعه — فأقلقت هـذه المحاولة أمن أعدائه الذين

خلعوه وهزت مركزهم فى مجال السياسة الداخلية • وكان المحرك له يد أجنبية فلم يكن ســوى أداة لا ارادة له فى يد الدبلوماسيين الروس ، وبمساعدتهم قاد بنفسه مجموعة من الجنود القوقازيين فى عام ١٩١١ وزحف بها فى شــمال ايران ، ولكن مخاطرته باءت بالفشــل واضطر محمد على الى الهرب مرة ثانية خارج البلاد ، وأجبرت الحكومة الانجليزية والروسية الوطنيين أن يدفعوا له معاشا من خزينة الدولة •

أقلق النظام الحاكم فى ايران روسيا ، فساعدت الشاه المخلوع على القيام بهذه المخاطرة الفاشلة ••• ثم ماذا ؟ •• ترقبت روسيا فرصة تتيح لها تدخلا مباشراً فى شئون ايران ، ووانتها هذه الفرصة عندما استدعى وزير ايرانى خبيراً أمريكيا لتنظيم واصلاح الخزانة الايرانية بناء على تفويض غير محدد حصل عليه من البرلمــان لاتخاذ الاجراءات اللازمة الكفيلة بتنظيم الادارة المــالية ، وكان هذا عملا وطنياً استهدف الحصول على الحرية الاقتصادية بالتخلص تدريجياً من قيود القروض الأجنبية ، غير أن روسيا وجدت فيه حجة للهجوم فأرسلت انذاراً الى الحكومة الوطنية فى ايران لأنها — أى روسيا — رأت فى استدعاء خبير اقتصادى توسيط قوة ثالثة فى المسائل الداخلية الايرانية ، ولم تستشر فى هذا العمل ، وكان يجب على حكومة ايران أن تحصل على موافقة روسيا فى هذا الشأن •

طالبت الحكومة الروسية بطرد هذا الخبير الأمريكى فوراً وأن تقدم الحكومة الايرانية وعداً بألا تستدعى فى المستقبل أى أجنبى الى ايران دون أن تحصل قبل ذلك على موافقة الحكومة الروســية والانجليزية •

رفضت الأغلبية الوطنية فى البرلمــان — بيت العدالة — الانذار الروسى ولم تجب المطالب التى جاءت فى هذا الانذار ، وخرجت طهران فى الشوارع احتجاجا على هذا الهجوم الاستعمارى ، وعارضت كلتا القوتين الغربيتين ، وكانت الجماهير متحمسة ضد روسيا وانجلترا نتيجة

رد الفعل الايرانى على ذلك الانذار الذى اعتبر تهجما على السيادة الايرانية ، ولأول مرة خرجت النساء فى مظاهرة سياسية ••• ولم يكن خلف هذا الاحتجاج ما يسنده سوى التحرك لكرامته ، فلم يملك قوة تدافع عنه ، وليس له حليف قوى يقف معه •• والقوة تخضع الحق دائما وتقضى عليه ••• ولهذا انزلق الوطنيون فى واد ليس لهم فيه سند ، ولا يملكون ما يدافعون به عن حقهم ، وبالتالى لا يملكون فيه حقاً •

عززت روسيا قواتها فى الشمال فى المنطقة المتنازع عليها ، وزحف القوقازيون الى طهران ، فأطاحوا بالحكومة الوطنية وحلوا البرلمان وسلمت السلطة لحفنة من الرجعيين ضمنت ولاءهم ، وبهذا انتهت الحركة الوطنية الأولى فى ايران ، تلك الحركة التى ارتبطت ارتباطا جزئيا بالفكر الاسلامى وكانت صلتها أوثق بعلماء الدين ، وتميزت بذلك عن الحركات المماثلة فى الأجزاء الأخرى من العالم الاسلامى •

فشل الوطنيون فى مواجهة القوى الاستعمارية ، فقد التقت وجهة النظر الروسية والانجليزية على ضرورة ضربهم والقضاء عليهم ، ونجح مخططهم فى ذلك ، وتولت السلطة حكومة قوية ، وقف وراءها كلتا القوتين الغربيتين ، واتخذوا البلاد مجالا مباحا لهم ، فعلى الرغم من الموقف الحيادى الرسمى لايران ، صارت بعد اندلاع الحرب مسرحا للعمليات الحربية بين القوات الانجليزية والروسية من جانب ، والقوات التركية والألمانية من جانب آخر •

ولم يظهر الوطنيون الا بعد سقوط القيصرية فى روسيا ، بعثوا من جديد بأفكار جديدة وفى تنظيمات حديثة ، واستمدوا قوة اندفاعهم من مساعدة الثوار فى روسيا ، الذين آزروا الوطنيين فى منازعاتهم مع انجلترا ، وأمنوا ايران للايرانيين •

أحدث التقاء الشرق بالقوى الاستعمارية الغربية تفاعلا فى العالم الاسلامى نشأت عنه الحركات القومية التى اتخذت النموذج الغربى طابعا لها ، واتسمت فى غالب أمرها بالفهم والتسامح ، وغلب على أعضائها طابع الاعتدال وعدم التعصب ، ولم يكن هذا فقط نتيجة التقاء

الشرق بالغرب ، بل حدث أيضا رد فعل قوى فى المجال الدينى ، حيث انطلقت دعوة لتجديد مفاهيم الاسلام ، واحياء تعاليمه ، وظهرت حركات كرست جهودها لتخفيف حدة التشدد فى التعاليم الاسلامية ، حتى تصبح ممكنة التطبيق بين ظواهر الحياة التى غيرتها الحضارة الغربية التى اقتحمت البلاد ، واعتقد بعض الباحثين أن القرآن مشتمل على كل ما فى الحياة ، فما جاءت به الحضارة وما توصل اليه العلم الحديث موجود فيه ، فحاولوا شرح تعاليم النبى على وجه يفهم منه أنه تنبأ بهذه الحقبة التى ظهرت الآلة فيها ، وأراد هؤلاء العلماء بهذا المنهج ملاءمة الشريعة الاسلامية لما تتطلبه سياسة العصر الحديث ، سواء أكانت علمية أو غير علمية .

اقتنع دعاة الحركات القومية أن الزمن الذى يصلح لتطبيق التعاليم الاسلامية فى جميع شئون الحياة قد انتهى ، وبدأت حقبة انحسار الدين من الحياة العامة ورجوعه الى المساجد ، حقبة بدا فيها الدين مسألة شخصية ، أما حياة الدولة فيجب أن تقام على مبادىء غير دينية أى أن قوانين الدولة ونظمها لا ينبغى أن تؤخذ من شريعة النبى [1] . عارض هذا الاتجاه تيار آخر اتخذ الاسلام مبدأ له ، ودعا أنصاره الى بعث التعاليم الاسلامية من جديد على أساس أنها تنظم حياة الدولة اجتماعياً وسياسيا بجانب كونها مبادىء دينية تربى الفرد روحيا وترسم له طريق العبادة والتقرب الى الله .

وكان من أهم عوامل ظهوره مواجهة الشرق للغرب غير المتدين . وقد سلك هذا التيار الدينى طريقين :

---

(١) حاول المستعمرون هدم الاسلام فنشروا بين ابنائه عدم صلاحيته للمجتمع الحديث وتلقف هذا الرأى عملاء الاستعمار ومن شايعهم من انصاف المثقفين الذين لا يعرفون شيئا عن التعاليم الاسلامية سوى ما يجرى على السنة العامة والجهلاء وقد تناول الاستاذ الدكتور محمد البهى ، هذه المسألة باستفاضة فليرجع القارىء الى ما كتبه فى كتاب « الفكر الاسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى» و «الفكر الاسلامى والمجتمع المعاصر .. مشكلات الاسرة والتكافل » . (م . ش) .

١ — عودة الاسلام الى صورته الأولى عن طريق التمسك بتعاليمه حرفيا ، كى يعود له صفاؤه السابق وطهارته التى كانت له على عهد الصحابة ، ويكون ذلك مقدمة لاسترجاع مجده السياسى وقوته الدفاعية ، ليستطيع الوقوف ضد البلاد الغربية .

٢ — محاولة التخفيف ، من التمسك بالنص وتقديم المعنى الذى يساير العصر ، بشرط أن يقبله النص ، وبذلك تطرح هذه الآراء المشتركة التى أصبحت بمرور مئات السنين صيغ تردد ، ولا معنى لها للمناقشة ، وأريد بهذا العمل بيان أن تعاليم الاسلام ليست صورا ميتة ، بل لها القدرة على مسايرة التطور ، ولهـا صلاحية التطبيق فى جميع شئون الحياة ، سواء تعلقت بالفرد أو بالأمة ، فهى صالحة لأن تكون أسلوب الحياة فى المجتمع الحديث الذى غيرته المدنية .

ولم يقصد أحد من أنصار هذا الرأى المساس بالمبادىء العامة للاسلام ، ولا تغيير نصوص القرآن فهى راسخة فى نفوس الجميع وتنفرد بقدسية فى جميع أنحاء العالم الاسلامى ، غير أنها مهددة بتأثير الحركات القومية على العامة ، ذلك أن دعاة الوطنية حملوا شعار حرية الآراء كسلاح له خطره على وضع الدين فى المجتمع [1] .

تقابلت هذه الدعوة الى النهضة الدينية مع طموح عبد الحميـد حين دعا الى الوحدة الاسلامية ، غير أنهما يختلفان فى المنبع ، فدعوة عبد الحميد مدفوعة بدوافع سطحية ، وهدفها التمكن من السيطرة

---

(١) دعا الاسلام الى كفالة الحرية فى جميع ميادينها ، ضمن حريـة الفرد وأباح حرية التعبير وحرم على المسلمين محاولة الاعتداء على الآخرين سواء اكان اعتداء على اموالهم أو أعراضهم أو أقواتهم ويسمى ذلك فى العصر الأخير فى المجتمع الحديث بالآداب الاجتماعية العامة ، ومن يقرأ القرآن يجد كثيرا من هذه الآداب الاجتماعية ، اقرأ على سبيل المثال آية ٥٨ من سـورة النور — ويفهم من هذا أن الحرية لا تكون سلاحا ضد الدين فى المجتمع بل بالعكس لا يعيش الدين الا فى جو من الحرية « **لا اكراه فى الدين ، قد تبين الرشد من الغى** » (البقرة : ٢٥٦) . ولا يتسع المقـام هنا لتحـديد موقف الاسلام من الحرية على وجه التفصيل ، وعسى الله ان يوفقنا مستقبلا الى الكتابة فى هذا الموضوع . (م . ش) .

والاستبداد السياسى ، أما هذه النهضة ففجرتها قوى كمنت فى الأعماق ، واندفعت من طبيعة الشعب المتدين ، ولكنها اتخذت الوحدة الاسلامية أساسا لخططها السياسية ، وفى هذه النقطة التقت تلك النهضة مع دعوة عبد الحميد ، وكلاهما كان رد فعل للحركات القومية وقفا جنبا الى جنب فى طريق دعاة القومية .

أول من رفع لواء هذه النهضة جمال الدين الأفغانى ، فهو يعتبر الأب الفكرى لها وباعث حركتها فى معظم بقاع العالم الاسلامى ، جاب المنطقة الاسلامية شرقا وغربا داعيا لفكرته معبئا القوى حولها ، وكان استمرار الدعوة من أهم أهدافه ؛ لذلك أسس مدرسة من المفكرين ، كان واجبهم توجيه التيار — الذى يسرى فى البلاد الاسلامية متخذا أوروبا نموذجا له — وجهة اسلامية ، وحصره فى دائرة عقيدة الاسلام . أراد جمال الدين صبغ التيارات الآتية من المنابع الأوروبية بصبغة اسلامية ... وترتب على رغبته فى ضرورة الاصلاح السياسى هجوم على الأوضاع الفاسدة ، وادانة سوء الاستعمال الذى ارتكب فى عهد الحكومات الاستبدادية ، وكان يلتزم روح القرآن فى اصدار حكمه على أولئك الذين يستغلون الشعوب ويستنزفون دماء المسلمين ، ولا ينتمى جمال الدين وتلاميذه فى جميع بلاد العالم الاسلامى الى تلك الفئة التى انحدر منها دعاة القومية الذين يتخذون الطابع الغربى نموذجا لهم دون نقاش ، ولأدنى نقد ، فقد استولت عليهم مباهج الحضارة الغربية ، فاعتنقوا مبادئها قضية مسلمة لا تقبل الشك اطلاقا . أما جمال الدين وتلاميذه فقد تخيروا منها ما يتفق وطبيعة العالم الاسلامى ، ولم ينقلوا ما أخذوه بصيغته ، بل صاغوه صيغة جديدة تتناسب مع ما تتطلبه الحياة الشرقية . ولذلك لا ينطبق على ما قاموا به بأنه اضفاء الطابع الأوروبى على بلاد الشرق ، بل تلوين مبادىء الحضارة الغربية بلون شرقى . واعطاء ما أنتجه الفكر الأوروبى صبغة اسلامية .

ولد جمال الدين الأفغانى فى منطقة الأطراف الشرقية من المرتفعات الايرانية فى شمال أفغانستان ، وقضى حياته الأولى فى بخارى حيث

عاصر الاستعمار الروسى يتقاطر هناك ، واحتك لأول مرة بالقوى الغربية ، ثم رحل الى الهند حيث قابل الاستعمار الغربى فى طابعه الانجليزى • وعندما بلغ العشرين من عمره انخرط فى سلك خدمة أمير أفغانستان ، ولمس فى هذه الفترة أيضا صورة حية لما آل اليه المجتمع الاسلامى عندما زار مكة لأول مرة • مكث جمال الدين عشر سنوات فى أفغانستان يفكر فى حال المسلمين ويطيل النظر لاختيار المكان الذى تنطلق منه دعوته الى الاصلاح ، واستقر رأيه على أن أنسب المناطق ، تلك التى يتواجد فيها صراع مر بين الشرق والغرب • أقام وقتا قصيرا فى القاهرة وتمهل فى دمشق ، ثم ظهر فى القسطنطينية عام ١٨٦٩ م عاقدا العزم على البدء بتهيئة الفكر كى ينطلق على طريق الاصلاح الدينى •

تولى منصب الأستاذية فى المدرسة العليا للشريعة الاسلامية ، فجمع التلاميذ حوله ولقنهم المبادىء التى آمن بها ، ورباهم تربية دينية ثورية فكانوا هم الرعيل الأول الذين سيواصلون حمل دعوته الاصلاحية ، وقد سبب له التفاف التلاميذ حوله متاعب ، اذ حرض عليه العلماء المتزمتين ، واتهمه شيخ الاسلام بالزندقة ، واضطر على اثر ذلك الى مغادرة تركيا ، كى يتفادى هذا الهجوم من شيخ الاسلام •

تلقت القاهرة الثائر المصلح وأفسحت له مكانا فأقام فيها من ١٨٧١ م حتى عام ١٨٧٩ م • اشتغل فى هذه المدة مدرسا فى الجامعة الاسلامية التى تعتبر أقدم وأشهر جامعة فى العالم الاسلامى : الأزهر الذى كان له فيه تلاميذ حملوا رسالته من بعده ، وساروا على نهجه فى طريق الاصلاح الدينى والسياسى • تبين لجمال الدين فى القاهرة مدى الخطورة التى تهدد الشرق ، ففى مصر تتركز هجمات أوروبا ، فأعلن المقاومة ، ولم يكن كفاحه ضد الاستعمار الغربى أقل من معارضته موقف الطبقات الحاكمة واستغلال الباشوات الشرقيين الشعوب الاسلامية ، ومن هنا اقتنع اقتناعا جازما أنه يجب بذل الجهود واشحاذ الهمم للمحافظة على الوحدة الفكرية فى العالم الاسلامى ، وفى الوقت نفسه ينبغى تسليح

المجتمع الاسلامى بسلاح المدنية الغربية ، وتثقيف العامة ورفع مستواهم الفكرى ، لأن ذلك يؤثر فى المجال السياسى ، وبين جمال الدين أن الاسلام يعطى للشعب حق تقرير مصيره ، وأن الاحداث السياسية التى تنتج عنها اقامة نظم الحكم الموجودة اثر الهجوم الغربى على الشرق لا يجوز قبولها على أنها قضاء وقدر كتب على جبين هذا الشعب ، ولا تستسلم لعبثها اعتمادا على أن ذلك ارادة الله ، بل يجب الكفاح ضدها حتى تستقيم أو تزول ، لتحل محلها حكومات عادلة ، والدفاع عن حقوق الشعب واجب مقدس فى عنق كل مسلم •

نجح الأفغانى فى تحرير الأزهر من نظام التعليم التقليدى الذى توارثه الخلف عن السلف ، وأعلن فيه صيحة التجديد ، ولقن تلاميذه طريقته لاصلاح هذه الجامعة ، وعندما اضطر الى مغادرة القاهـــرة عام ١٨٧٩ م ترك خلفه عدداً من التلاميذ الممتازين حافظوا على أفكاره ، ودعوا اليها ، ونشروها فى مصر التى كانت فى أمس الحاجة اليهـــا لدفعها الى الأمام فى المجالات الدينية والسياسية ، وكان محمد عبده الذى تولى منصب الافتاء فيما بعد من أنجب تلاميذه ، دعا الى اصلاح مناهج التعليم فى الأزهر ، وتحقق كثير من آرائه التقدمية التى سارت ببطء لمـــا لاقاه من معارضة الشيوخ الذين لم يفهموها آنذاك •

ظل الأزهر منذ عهد جمال الدين المكان الذى نبتت فيه براعم الثورة الاصلاحية على الرغم من طرده منه فى وقت مبكر ، فتطورت فيه الدعوة الى النهضة الاسلامية ، واكتسبت منه القدرة على التأثير بين الجماهير واستمدت منه القوة على الاستمرار بين التيارات الغربية الدخيلة ، ففيه نمت طبقة الزعماء الاسلاميين الجدد الذين كرســـوا جهدهم لتحويل الحركات القومية فى الشرق مرة أخرى الى الناحية الاسلامية وجذبها الى دائرة الاسلام ــ بعثت هذه الطبقة النشاط فى الأزهر وخلصته من الجمود الذى ران عليه عبر القرون ــ وكان الهدف من ذلك تحويلها الى حركات شرقية ، وقد ارتبط هؤلاء الزعماء الروحيين الذين حملوا أفكار جمال الدين بالنظام الداخلى للاسلام ،

وتعمقوا فى الدراسة الدينية ، وغلب عليهم الطابع الاسلامى ، فعرفوا بأنهم حماة الاسلام والمدافعون عنه •

ترك جمال الدين الأفغانى القاهرة مضطرا ، لأن دعوته أقلقت الخديوى توفيق ومستشاريه الماليين الأوروبيين ، وهزت مراكزهم ، فأرادوا التخلص من هذا « المشاغب الخطير » كما كانوا يسمونه ••• اتجه الى الهند ثم طرده الانجليز من هناك عام ١٨٨٢ م بسبب نشاطه « الهدام » الذى أفسد عليهم الجو هناك وأيقظ صوت المعارضة ضدهم فذهب الى أوروبا ، وعاش هناك منفيا سبعة أعوام ، متنقلا بين عواصمها حتى دعاه الشاه مظفر الدين الى طهران فى عام ١٨٨٩ •

كان تأثيره فى طهران مثل ما كان فى القاهرة والقسطنطينية ، يسرى بين الناس بسرعة فائقة ، ويدفع المثقفين حوله الى التجديد والنهضة ، والى الثورة على الجمود ، كما تدفع الخميرة العجين الى الفوران ، وجره هذا الى الوقوع فى نزاع مع الشاه المستبد فى حكمه ، وبعد سنتين من النشاط المر والحركة الدائبة هرب الى لندن فى عام ١٨٩٢ م وقابل هناك الايرانى « بالكولم خان » الذى كان أخلص تلميذ للأفغانى أثناء اقامته فى لندن ، وأصبح فيما بعد خليفته فى ايران حيث ربى الشباب الايرانى الجديد الذى تسلم قيادة الثورة القومية فى ايران فى سنى القلاقل ، فى بداية قرننا الحالى •

فى عام ١٨٩٥ م طلب السلطان عبد الحميد من جمال الدين — كان يقيم آنذاك فى لندن — أن يعود الى القسطنطينية ، فلبى الطلب ، وواصل نشاطه فى عاصمة تركيا وترك عبد الحميد له الحرية ، لأنه وجد فيه أداة طيبة لمساعدته فى دعوته الى الوحدة الاسلامية ، ولكن عطف عبد الحميد بقى مدة لم يتبين فيها خطر تعاليم جمال الدين عليه كمثل للاستبداد الشرقى ، غير أنه بمجرد أن عرف « السلطان الأحمر » هذا الخطر تغيرت صداقته ، وانقلب عطفه الى الضد وحاول بكل الوسائل أن يسكت صوت الأفغانى ، كما أزال من الطريق زعيم القوميين « مدحت باشا » ، فواتته

الفرصة عندما اغتيل الشاه ناصر الدين شاه ايران فى عام ١٨٩٦ م فى طهران ، واعترف الجانى — وهو أحد الشبان الايرانيين — بأنه تلميذ جمال الدين الأفغانى ومن أبنائه ، فطلبت الحكومة الفارسية تسليمه لأنها اعتبرته فاعلا غير مباشر ، اذ أن أفكار الجانى مستمدة منه ، ولم ينفذ هذا الطلب ، لأن أعوان عبد الحميد دسوا السم لزعيم الاصلاح الاسلامى جمال الدين ، قبل أن تنتهى محادثات تسليمه ، وسلم ثلاثة من تلاميذه الى السلطات الايرانية بدلا منه ، وتم اعدامهم فى ايران •

ظلت تعاليم جمال الدين حية بعد موته ، واستمر تأثيرها فى كل المدارس الاسلامية « اللاهوتية » تقريبا ، وتربى عليها طبقة جديدة من زعماء الفكر الذين درسوا فى المعاهد العليا وفى الأزهر • جذب هؤلاء القادة العالم الاسلامى الى أفكارهم ، وأثروا فى توجيه كثير من المؤسسات الاسلامية ، وتزعموا فكرة الالتقاء البناء بين القومية فى الشرق وبين الاسلام الذى تخلص من شوائب الجمود التى علقت به فى عصور الانحطاط ، وبين هؤلاء نمت فكرة لها اتجاهها ومنهجها تطلق عليها اليوم كلمة « القومية الاسلامية » •

قامت حركة دينية تختلف فى طابعها عن حركة جمال الدين الأفغانى ، تمسكت بالنصوص كما هى ، وتعصبت لها وأرادت الرجوع بالمجتمع الاسلامى الى عهد صدر الاسلام وأن تعيد للاسلام صفاءه الأول ، وظهرت هذه الحركة فى مذاهب وجماعات تعدى أثرها المجال الدينى ، اذ أنها خاضت مجالات سياسية واجتماعية •

وأهم المذاهب التى حملت لواء الدعوة الى هذا النوع من الاصلاح الدينى مذهب الوهابيين ، الذى يرجع تاريخ ظهوره الى القرن الثامن عشر ، وقد نال الوهابيون نجاحاً غير متوقع — بعد الفترة التى بان فيها ضعف مذهبهم وظن أنه اندثر — ذكر الناس بأيام الاسلام الأولى •

لقد ظهرت الوهابية فى قلب الجزيرة العربية حيث يصعب الوصول اليها ولهذا ظلت أهميتها ومدى قوة تأثيرها غير معروف فى أوروبا ، فلم

يلتفت اليها أحد حتى نضجت ثمارها ، وظهرت أفكارها الى حيز التنفيذ والانتشار ، وأصبحت ذات مغزى خطير بالنسبة للشرق الاسلامى كله •

أسسها رجل كان له نشاط كبير ، وقدرة على تحمل أعباء مثل هذه الدعوات هو محمد بن عبد الوهاب ، الذى أراد أن يعيد تأسيس المملكة الاسلامية على أسس فكرية حنبلية كتلك التى أقامها النبى فى عصره ، فكلف أتباعه بتطبيق مبادىء صارمة فى شئون حياتهم ، وحارب كثيراً من ألوان الحياة التى تتعارض مع الحياة الطبيعية للانسان ، حرم المشروبات الكحولية والنيكوتين والحرير والذهب وحرم على النساء الزينة — كل أنواع المساحيق — وعلى الرجال حلق اللحية لأن الله خلقها حلية للرجل • وبالغ فى التشدد ، فهدم كل الأضرحة الدينية ، وحرم تعظيم الأولياء والآثار المقدسة ، لينصرف التعظيم والتقديس لله وحده ، وقد جر عليه موقفه هذا كثيراً من المصاعب أدت الى طرده من مسقط رأسه «العيينة Al-Ayayna » لأنه يسبب قلاقل سياسية واضطرابات فى المنطقة •

وجد هذا المطرود من وطنه ملجأ له فى « الدرعية AL -Daraiia » حيث كان يحكم الشيخ محمد بن سعود ، الذى أعجبته تعاليم ابن عبد الوهاب المنشودة فاعتنقها ، ثم عقد تحالف بين المدرس الداعى وبين الحاكم ، وبذلك أصبح للوهابية سلطة ، وطبقا للخطط السياسية والحربية التى رسمها محمد بن سعود قامت المملكة « الالهية » الثانية ، كما كان يحلم بها ذلك الداعى محمد بن عبد الوهاب •

وأصبح لجنود ابن سعود قوة لا تطاق ولا تنثنى بسبب العقيدة الروحية التى بثها فيهم ابن عبد الوهاب ، والتعصب الدينى الذى ملك شعورهم ، ودرجة حميتهم للتصميم على اقامة حكم الله فى الأرض ، وانطلق الدعاة — تؤازرهم الجنود — من داخل الجزيرة العربية الى كل جهة ، تلازمهم انتصارات متلاحقة وتلقاهم أعداد كبيرة من المريدين والمؤيدين ، وظهر فى كل مكان « مطهرو الاسلام » كما كانوا يسمون أنفسهم ، فهزموا القبائل ونظفوا المساجد من كل الصور والآيات الزخرفية،

وهدموا الأضرحة ، وجردوا العبادات الدينيـــة من الشـــوائب ، التى دخلت فيها فى عصور التخلف •

فى عام ١٨٠١ غزا الوهابيون كربلاء ــ كعبة الشيعيين ومقصد حجيجهم كل عام ــ وأزالوا الأضرحة المقدسة ، وفى عام ١٨٠٤ كانت مدن النبى [ﷺ] ــ مكة والمدينة ــ فى قبضة أيديهم • ونفذت حركة « التنظيف » هناك فوقع قبر النبى [ﷺ] ضحية • ولم يمض عامان حتى كان جنوب الجزيرة العربية بعمانه ورعنه فى قبضة أيديهم ، ثم امتدت انتصاراتهم شمالا حتى وصلت « مملكة النبى الثانية » فى عام ١٨٠٨ م جبال لبنان وبلغت سيطرتها شاطىء البحر الأحمر وشاطىء المحيط الهندى •

دفعت الانتصارات محمد بن سعود أن يضع نفسه موضع الخليفة فى القسطنطينية فعجل ذلك ــ بالاضافة الى تعصب ابن عبد الوهاب ــ بنهايته ، اذ كلف السلطان واليه فى مصر محمد على الذى كان يضرب به وبجنوده المثل فى الشجاعة والانتصارات الحربية أن يقوم بحملة ضد الوهابيين الذين أصبحوا خطراً يهدد وحدة المملكة التركية •

وقاد محمد على حربا ضارية امتدت ثمانية أعوام ، قوض فيهـــا « مملكة الله » التى أقامها محمد بن سعود وطرد الوهابيين من مكة والمدينة وأعدم زعماءهم أمام الحاجة صوفيا فى القسطنطينية • وبهذا أسدل الستار على الحقبة التاريخية الأولى للوهابيين ، ثم عاشوا بعد ذلك داخل الجزيرة العربية فى بقعة صغيرة حاولوا الحفاظ عليهـــا بصعوبة بالغة ، فكان وجودهم مزعزعاً ، اذ انكمشت مملكتهم الالهية العملاقة الى دولة بينها وبين القزم شبه • اختار ابن سعود فى عام ١٨٣٠ م الرياض عاصمة له ، ولكن سرعان ما ضاعت السلطة السعودية وانهارت هذه الدولة الصغيرة أيضا بسبب هجوم القبائل المجاورة عليها ، وظل الوهابيون مهملين على مدى عشرات السنين ، حتى خلقت مواجهة الشرق للبلاد الغربية جواً فى العالم الاسلامى أتاح لفكر ابن عبد الوهاب فرصة للظهور مرة ثانية •

ففى عام ١٩٠١ ظهر للوهابيين قائد جديد استولت تعاليم المذهب على مشاعره وتملكته الفكرة ، فقام بمغامرة أعاد بها سلطة السعوديين فى الرياض ، ومن هذه المدينة بدأ فى بناء « مملكة الله » الثانية • هذا القائد هو عبد العزيز بن سعود — حفيد محمد بن سعود الكبير — الذى يعرف الآن فى العالم باسم ابن سعود وهو الآن سيد الجزيرة العربية •

أقلق هذا النجاح الدوائر الحاكمة فى القسطنطينية ، لأنها عرفت قبل قرن أن الوهابيين مجاهدون يدافعون عن الدين ، يتعقبون الوثنية الضالة فى دين نبيهم ، ويتخذون ذلك منطلقا لخلق دولة منظمة ذات كيان سياسى مستقل فى الجزيرة العربية ، كى يقيموا رباط أخوة وثيق بين أبناء الجزيرة ، قائم على أساس دينى ، وكونوا بذلك شيئا يشبه القومية العربية ، واستحثوا سكان المنطقة على تعضيد هذه الفكرة ببرنامج دعائى ، كرس نشاطه على تذكير العرب بالعصر الذهبى فى تاريخهم ، يوم أن كانوا وحدة قوية تحمل لواء الاسلام وتدافع عن جهازه السياسى ، وهو الدولة الاسلامية ، وكان هذا الأسلوب وسيلة للقضاء على المنازعات القبلية ، وطريقا لخلق الشعور القومى بعد بناء العصبية القبلية •

أرادت القسطنطينية أن تحول — بكل وسيلة — دون عودة الوهابيين ، حتى لا يتكرر الخطأ حين تركتهم المملكة التركية قبل قرن حتى استفحل أمرهم ، وقاموا بثورتهم التى هددت الدولة آنذاك ، فألب الباب العالى عليهم القبائل المجاورة للرياض وعبأها ضد ابن سعود وأوعز اليها بالهجوم على الرياض ، غير أنه فشل وقضى الوهابيون فى هجوم مضاد على دولة الشمريين التى كان يتزعمها ابن رشيد ، ذلك الرجل الذى ملك السيادة على قلب شبه الجزيرة العربية سنينا عدة ، وبالقضاء عليه انتقلت هذه السيادة الى ابن سعود ، وبالتالى الى الوهابيين •

كان عام ١٩١٠ بدء مرحلة فكرية جديدة فى تاريخ الوهابية ، بدأ فيها انتشار المذهب بطريقة منظمة وشاملة ، ففى هذه السنة أسس ابن سعود حركة الاخوان ، التى حاول بها أن يدفع من طريقه القبائل العربية التى

وقفت تزاحمه وتعترض بناء دولة كبرى مركزية ، فأحيت هذه الحركة شعور الانتماء الدينى ، وتوطنت فى أجزاء متعددة من المملكة السعودية ، وأصبحت مستعمراتها فقط حماية للرعاة ، وهيأت لهم امكانية الاقامة الدائمة حيث جرى توعيتهم بطريقة منظمة وشاملة للقضاء على أفكارهم القبلية وغرس الشعور بالوحدة العربية فيهم على أساس دينى يتخذ هدفه عودة الدولة الاسلامية الأولى •

ان التطور التاريخى لا يسير فى خط مستقيم ، بل ينحنى ويعاود السير فى درب سبق له سلوكه ، وهذا ما يعبر عنه بأن التاريخ يعيد نفسه — أى أن أحداثا سابقة تعود الى الظهور متشحة نفس الثوب الذى ميزها عن غيرها فى العصور السالفة — نجد ذلك واضحا فى حركة الوهابيين ، فقد عادت معها مميزات من عصر النبى [ﷺ] حين نجح الاسلام فى أن يخضع الشعور القبلى العربى الذى يتسم بالعداوة واثارة الشحناء بين العرب يضرب بعضهم بعضا الى السير فى اطـار الجماعة ، ويوجه ارادتهم القتالية من حالة الضرب ضد بعضهم الى حالة الضرب مع بعضهم ضد المعاصرين الذين عادوا الاسلام ورفعوا فى وجهه سيف المعارضة • أراد الوهابيون اعادة الأفكار — سواء أكان ذلك من وجهة النظر الدينية أو السياسية أو الاجتماعية — التى بنت الدولة الاسلامية فى عصر النبى [ﷺ] وأعطتها قوة الكفاح ، حيث حققت مركزا عالميا تطامنت دونه كل القوى المعاصرة • وعليه فلم تكن حركة الاخوان موجهة ضد المعاصرين من غير المسلمين ، بل محاولة للنهوض بالأمة العربية التى تفككت أوصالها ، فهوت الى الحضيض • كانت محاولة من رجال ذوى بصيرة لاقامة نظام يوثق الصلة بين الأفراد ويعمق فيهم التعصب للبلاد العربية ، كى يرسوا قواعد الدولة الحديثة • وقد كشفت الثلاثين سنة الأولى من قرننا الحالى عن مدى رسوخ ودوام هذه القواعد ، وعن مدى نوع القوى الدافعة لفكرة تتخذ الدين أساساً لها ، فقد انتزع مؤسس حركة الاخوان — معتمداً على قوة المجاهدين فى سبيل العقيدة — السلطة فى الجزيرة العربية ، وواجه الارادة التركية والانجليزية ،

ثم واصل التوسع — متجنبا المواجهة المباشرة مع الاستعمار الغربى — حتى وصلت مملكة الوهابيين الجديدة شاطىء البحر الأحمر والحدود الفلسطينية وبلاد ما بين النهرين • ولأول مرة منذ العصر الاسلامى الأول يتحقق حكم الوحدة العربية نابعا من قوتها الذاتية ويصل الى هذا النجاح رغم ارادة البلاد الغربية •

* * *

لم تنطو الحركة الوهابية على نفسها داخل صحراء الجزيرة العربية ، وطن الاسلام الأول ، بل امتد تأثيرها فى شرق العالم وغربه ، وتكونت جماعات وهيئات تنادى بتطبيق مبادىء الاسلام فى المجتمع •

سمع العالم الاسلامى بحركة الوهابيين ، واحتك المسلمون بهم فى بداية القرن التاسع عشر ، عندما وصل زحفهم المدن المقدسة — مكة والمدينة — وأرادوا تحويل المقامات المقدسة فيهما الى أنقاض ، طبقا لتعاليمهم ، ووقف العالم الاسلامى الذى يرسل سنويا آلاف الحجاج الى مكة بين مؤيد ومعارض لهذه الأفكار التزمتية •

كان الشيخ عثمان بن دانفوديو أحد الذين اعتنقوا تعاليم ابن عبد الوهاب وتعصب لها ، وأسس حركة تدعو الى الوهابية ، فقد التقى هذا الشيخ — الذى جاء من السودان الى مكة حاجا — بالوهابيين ، وأخذ عنهم تعاليمهم ، وبعد أن عاد من مكة الى وطنه ، التزم طريقة ابن عبد الوهاب فى حياته ، ودعا الى تعاليمه بين أفراد قبيلته وتطورت الأحداث معه كما تطورت فى شبه الجزيرة العربية مع الوهابيين ؛ ولكن على شكل أصغر ، فقد حاول عن طريق الاسلام التغلب على العداوة القبلية وأن يكون وحدة دينية بينهم ، ومن لم ينضم مختارا أجبره على ذلك بقوة السلاح رغم أن تعاليم النبى [ﷺ] لم تنشر بالسيف ولا بالنار ، فقد نجح فى العمليات الحربية التى قام بها فى عام ١٨٠٢ وبعدها بسنتين سقطت مملكة جوبير — دولة هوسا على نهر النيجر — وتأسست مملكة وهابية جديدة فى افريقيا تقوم على أساس دينى • وكانت سوكوتو الواقعة قرب النيجر عاصمتها • وصمدت هذه الدولة

رغم مضايقات القوى الاستعمارية حتى عام ١٩٠٠ م وساعدت قوة سلطانها وتماسكها الداخلى على انتشار الاسلام فى مناطق السودان الغربية ويحمل خليفة عثمان دانفوديو — حتى يومنا هذا وفى عهد الحماية الانجليزية — لقب ملك المسلمين .

* * *

انتشرت التعاليم الوهابية فى أجزاء من الهند الاسلامية ، وعلى وجه التحديد فى المناطق التى أصبح الاسلام فيها مهدداً — من وجهة النظر الاسلامية — عن طريق الاختلاط مع الهندوس ، لأن المسلمين تهاونوا بتعاليم القرآن بسبب هذا الاختلاط مما جعل الاحتياج الى « التطهير » ضرورة ملحة .

كان السيد أحمد المدرس الوهابى الداعى الى الوهابية فى الهند يتمتع بنفوذ كبير فى المناطق الاسلامية الواقعة على خليج بنجابى . فقد كان ملكا على « Rai Pareli » واعتنق الاسلام فى عام ١٨١٦ م . ثم ذهب الى مكة لأداء فريضة الحج وهناك التقى بالوهابيين وسمع منهم واقتنع بتعاليمهم ورأى ضرورة التبشير بها فى وطنه ، وعندما عاد الى بنجاب فى عام ١٨٢٠ قام بالدعوة الى مذهب الوهابية ، فبين لبنى وطنه المسلمين أنهم يعتنقون الاسلام اسما فقط ، لأن حياتهم لازالت تحمل الطابع الهندوسى ، والاحتفالات التى يقيمونها فى أعيادهم توجهها معتقدات الهندوس ، وكذلك القنون الذى ينظم شئون حياتهم .

تعثر انتشار الوهابية فى الهند بسبب صعوبة تنفيذ تعاليمها ، فسلك الدعاة طريق الحرب ، اذ أقاموا مملكة فى بنجاب وأعلنوها حرباً ضد من يعارض هذا المذهب ، فقد دعوا الى الجهاد المقدس ضد « السيخ Sikhs » [1] الذين كانوا يتحينون مثل هذه الفرصة ،

(١) هم اتباع حركة اصلاح دينية فى الهند (يبلغ عددهم الآن ٧ مليون) فقد اراد مؤسس هذه الحركة « ناناك Nanak » — ولد عام ١٤٦٩ وتوفى ١٥٣٨ — أن يكون من الهندوس والمسلمين جماعة دينية واحدة على اساس الاعتقاد فى الوحدانية ، انتشر هذا المذهب فى بنجاب وتبوأ اتباعه مكانا سياسيا هاما بسبب حربهم ضد المغول ، فى عهد « سوبند سنغ Sobind Singh » — ١٦٧٥ الى ١٧٠٨ اقام لهم تنظيما عسكريا واطلق=

وعندما وانتهم ممثلة فى هذا الهجوم الاسلامى تفادوه ، ثم انقضوا على مملكة الوهابيين فخربوها • ثم سقطت مملكة المجاهدين فى سبيل الله أمام الغزو البريطانى فى ثلاثينيات القرن المـاضى •

لم يتوقف السيد أحمد عن النشاط التبشيرى لهذا المذهب ، فرغم الهزيمة السياسية واصل الدعوة الى اعتناق الوهابية ، وبعد موته خلفه فى زعامة الطائفة ملاوى محمد اسماعيل الذى توارثها أبناؤه وأحفاده حتى اليوم • وقد بقيت الوهابية فى الهند تدعو اليها طوائف تختلف فيما بينها حول أبعاد التشدد فى تنفيذ التعاليم ، وأشهر هذه الطوائف « فرازيس Farazis » •

* * *

اذا واصلنا سيرنا نحو الشرق وجدنا أن الوهابية أخذت طريقها شرقا فانتشرت فى سومطرة ، فقد حمل الدعوة اليها هناك منذ عام ١٨٠٣ أحد المسلمين الذين عادوا من رحلة الحج الى مكة ، ثم تطورت الى قتال عندما حمل المجاهدون فى سبيل الله السلاح ضد جيرانهم ، الذين لم يعتنقوا الاسلام ، وقادوا معهم حربا ضارية مما اضطر رجال السلطة فى المستعمرات الهولندية أن يتدخلوا فى عام ١٨٢١ ضد اعتداء الوهابيين • ولم يستطع الهولنديون كسر شوكة الوهابيين قبل ستة عشر عاما من القتال فوق أرض سومطرة •

فى كل مكان ظهرت فيه الدعوة الى الوهابية — استمر ذلك حتى العصر الحديث حيث قضى تقدم البلاد الغربية فى الشرق على عصرهم الذهبى — يحاول الداعون تأسيس دولة الهية تتعصب لمبادىء الاسلام ،

= على كل فرد فى هذا التنظيم لفظ « اسد » وبعد موته فقدت الطائفة مركزها السياسى ، وعاشوا ضمن رعايا الملك «رانت شيد سنغ Rant Schid Singh» ١٧٨٠ الى ١٨٣٩ وفى عام ١٩٤٧ رحلوا عن منطقة البنجاب الواقعـة فى باكستان وهم يعيشون الآن فى شرق بنجاب والمناطق الشمالية الأخرى فى الهند متفرقين بين الهندوس . (م.ش) .

وتحاول احياءها عن طريق استعمال القوة • وترفض بجانب هذا — اذا احتكت أو ساقتها الظروف لمقابلة الغرب — النفوذ الغربى ، وترد كل شىء يأتى من الغرب يكون فيه أدنى شك فى التأثير ، على حياة المجتمع الاسلامى التى يتخيلونها من خلال تعاليمهم ، ويذهبون فى ذلك الى أقصى حدود التشديد ، ويظهر ذلك واضحا فى العصر الحاضر فى مملكة ابن سعود « الالهية » ، اذ لا تزال بلدا يحرم على غير المسلم دخوله ، كما يظهر أيضا عند السنوسى فى شمال افريقيا الذى يتزعم طائفة اسلامية ، كان للمذهب الوهابى أثر كبير فى ظهورها • قادت هذه الطائفة كفاحا مرا ومقاومة عنيفة على أرض ليبيا ضد الايطاليين المستعمرين ، استمر حتى السنوات الأخيرة ويرجع الفضل فى ذلك الى الوهابية التى أثرت تأثيرا غير مباشر على التنظيمات السنوسية التى تعرف باسم « الاخوة » ، فعملت على عودة الاسلام الى شمال افريقيا : عودته فى صفائه ونقائه ، وتربية المسلم تربية تشعره بالعزة وتكون فيه صفة اباء الضيم ، ومقاومة السيطرة الأجنبية •

* * *

ولد محمد على السنوسى مؤسس السنوسية فى الجزائر فى عام ١٨٨٧م ، وتربى فى مكة حيث شهد السنين التى ازدهرت فيها الوهابية هناك واتصلت بالعالم الاسلامى خارج حدود شبه الجزيرة العربيةعنطريق الحجاج الوافدين الى مكة • وفى عام ١٨٤٠ رجع محمد على السنوسى الى وطنه الجزائر ، فى الوقت الذى كانت تحاول فيه فرنسا تثبيت أقدامها هناك لتحقيق أول رغبة استعمارية • أسس العائدون من مكة أول زاوية ، تطورت فيما بعد الى مركز للمقاومة ضد الاستعمار الفرنسى فى الجزائر ، وفى النصف الأول من أربعينات القرن التاسع عشر طاف محمد على السنوسى فى شمال افريقيا ، ثم عاد الى مكة فوجد أن حكم الوهابيين انكمش نتيجة الحملة التى قام بها محمد على الكبير ضدهم • لم يخف ميله للوهابيين فقام نزاع بينه وبين الحاكم الجديد فى مكة ، أدى

التي طرده فى عام ١٨٤٤ م من المدينة المقدسة • عاد الى طرابلس ، وهناك قام نزاع بينه وبين البقية التركية ، فرحل الى قلب الصحراء واستوطن واحة جغبوب خارج حدود السلطة التركية •

وفى هذه الواحة أسس الطائفة السنوسية ، وكون لها تنظيما حربيا له طابع الوهابية المتزمتة ، فأعضاؤه ملزمون بالطاعة لرئيس الجماعة ، ينفذون أوامره تنفيذاً أعمى دون اعتراض أو مناقشة • ثم انتشر الدعاة المؤمنون بالرسالة ايماناً راسخا فى شمال افريقيا ، وأسسوا مراكز أسهمت فى المجال الاقتصادى اسهاما بالغا ، ودفعت عجلة الاصلاح بارادة قوية ، وأنجزت مشروعات ناجحة ، فقدمت للسكان المجاورين عملا نموذجيا خاصاً بزراعة الأرض لتنمية اقتصاديات الواحات ، وأينما وليت وجهك فى شمال افريقيا رأيت أعداداً لا حصر لها من السنوسيين الذين يعيشون متفرقين فى البلاد عمالا يدويين ، وأصحاب حرف أتقنوا عملهم فصاروا قدوة لغيرهم من المسلمين • وأرسل الاخوان السنوسيون دعاتهم خارج شمال افريقيا ، للتبشير بتعاليم هـذه الطائفة • فساحوا فى البلاد الاسلامية ، حتى وصلوا الجزيرة العربية وشبه جزيرة الملايو • وفى كل مكان ينزلون فيه تقوم نقطة مركزية للمقاومة ضد المستعمرين الغربيين ومعارضة النفوذ الأجنبى ، الذى يندفع تياره باستمرار فى المناطق الاسلامية •

نال المبشرون السنوسيون نجاحاً كبيراً فى السودان ، اذ انتشرت تعاليمهم حتى وصلت شاطىء بحيرة تشاد • واتسمت تنظيماتهم بالاحكام المتقن ، فلها رتب مسلسلة كما هى فى سلطة الكهنوت المنسقة ، ويأتمر أعضاء الزاوية بامرة أحد الدعاة ، الذى بلغ مرتبة الرئاسة ، بعد أن اجتاز الطريق التدريجى اليها ، ويطلق عليه لقب « المقدم » •

تفادى السنوسيون المقاومة ضد سلطان القسطنطينية ، فلم يوجهوا مبشريهم الى طرابلس ، حيث يعتبر السلطان نفسه الحاكم عليها ، وبحثوا عن أماكن لا تقابلهم فيها مقاومة السلطة الحاكمة ، ووجدوا ذلك

فى الجنوب • وكان أحسن حقل نبتت فيه دعوتهم ، تلك المناطق الجنوبية ، حيث أخضعوا الواحات الليبية لمراقبتهم ، وبعد أن كبرت الطائفة وزاد عدد المنتمين اليها ، نقلوا مركز الرياسة من جغبوب الى واحة الكفرة • وقام السنوسيون بنشاط كبير فى النواحى الاجتماعية والاقتصادية ، اذ قضوا على العداوة القائمة بين القبائل ، واقتلعوا جذور النزاع الذى كان مستمراً بينهم ، فتوحدت تلك القبائل تحت سلطان الاخوان السنوسيين ، وعاشت مع بعضها ترفرف عليها أجنحة السلم ويسود بينها الود والتعاطف ، أما فى الناحية الاقتصادية فقد ازدهرت التجارة وانتشرت فى المنطقة الجنوبية الليبية وتطورت العلاقات التجارية • فانتقلت بضائع وسط افريقيا الى مدن الشاطىء فى الشمال •

مات مؤسس الجماعة فى عام ١٨٩٥ وخلفه فى القيادة ابنه محمد المهدى السنوسى الذى كان متصوفاً ، وقد أدى ورعه وزهده الى اعتقاد اتباعه فى ولايته ، وسرعان ما اشتهر بين الناس بأنه ولى من أولياء الله الصالحين ، لدرجة أن كثيراً من أتباعه اعتقدوا بعد موته فى عام ١٩٠٢ م أنه يحيا حياة غيبية وسوف يعود •

عندما غزت انجلترا السودان بقيادة كتشنر لاقت مقاومة عنيفة من المهدى فى السودان ، وقدم السنوسيون للمهدى مساعدات كبيرة وعضدوه ضد الغزو الأجنبى •

خلف محمد المهدى السنوسى ابن أخيه أحمد الشريف ، لأن ابنه محمد بن ادريس كان قاصراً آنذاك ، فغير موقف الطائفة من السلطان فى القسطنطينية فى عام ١٩١١ م عندما هاجمت ايطاليا طرابلس لأنهم وجدوا أن هذا الهجوم موجه ضدهم ، كما هو موجه ضد الباب العالى ، فانتصر الشعور بوحدة المصير ، وأصبح أعداء الأمس حلفاء اليوم ضد هجوم البلاد الغربية • عقد السنوسيون معاهدة تحالف مع « أنور بك Enver Bey » مندوب الباب العالى فى ليبيا ، وأقسم أعضاء الاخوان على الكفاح ضد المسيحية الغربية ، طالما بقى الايطاليون على

الأرض الليبية ، فقادوا حملة للثورة ضد الحكم الايطالى ، وظلت هذه المقاومة تقلق الايطاليين وتسبب لهم متاعب حتى بعد أن عقد الاتفاق بين روما والباب العالى بمدة طويلة ، فقد كانوا وقود المقاومة — فكريا وقتاليا — ضد مطامع السلطة الايطالية ، واعتبروا أنفسهم — بعد أن تنازل السلطان عن حقه — أصحاب حق السيادة فى منطقة طرابلس وفى برقة ، وازاء موقف الباب العالى تباطأ السنوسيون عند اندلاع الحرب العالمية فى اعلان الدخول فيها بجانب القسطنطينية ضد انجلترا ، على أمل أن تعترف انجلترا بالاستقلال الذاتى لليبيا ، ولكن لم يحدث هذا ، وظل اعتراف بريطانيا بعيداً عن الواقع الملموس ، وعندما دخلت ايطاليا الحرب تأرجح خط الدفاع الاسلامى ، اذ فتح جبهتين فى مصر ضد انجلترا ، وفى طرابلس ضد ايطاليا • وكانت انجلترا مشغولة فى مصر لتفادى محاولة التشويش ، التى خلقها السنوسيون الى أن توصلت القيادة الانجليزية فى القاهرة فى عام ١٩١٦ م الى تفاهم معهم • فاتفقت انجلترا مع الليبيين على خطوط الحدود التى تطابق تقريبا الحدود بين مصر وليبيا حاليا •

اشتد ضغط السنوسيين من ذلك الوقت على الايطاليين الذين فقدوا كثيراً من المناطق فى ليبيا ، غير أن الهجوم على المدينة طرابلس فشل ، اذ صدته القوات الايطالية بعنف ، وظهر أن القوات السنوسية أقوى فى الدفاع منها فى الهجوم على منطقة خارجة كلية عن سلطانها ، كما هو الحال عند المقاتلين فى سبيل العقيدة لدى ابن سعود ، ورغم هذا فقد فقدت ايطاليا أثناء الحرب منطقة برقة كلها تقريباً •

وبعد الحرب هاجر الشيخ الكبير أحمد الشريف رئيس الطائفة الى تركيا ، فتولى مكانه سيدى محمد ادريس الذى قبل موقف التصالح وحاول التفاهم مع رجال السلطة الايطاليين ، فاعترفت روما بحقه فى السلطة على جنوب برقة •

ولكن التأثير الفكرى السنوسى تعدى هذه المنطقة ، وأصبح خطرا

على سلطة المستعمرين الغربيين ، اذ بدأ المسلمون فى أنحاء ليبيا يتقبلون الأفكار الثورية ويتحركون — فكريا — ببطء ضد الايطاليين ، الذين يملكون مستعمرات فى شمال افريقيا ، وبدأ الخطر يهدد المستعمرين ، لكن الفاشية التى أعادت التفكير فى انتهاج سياسة استعمارية نشطة تنبهت له ، وبدأت فى حسم النزاع مع الطائفة السنوسية ، فاشتبكت معها فى معارك خاضت بها القوات الايطالية حربا ضارية بقيادة « جرازيانى Graziani » فى الفترة من عام ١٩٣٠ الى ١٩٣٣ م وانتصر الايطاليون انتصارا ساحقا ، وفر الآلاف من أتباع السنوسى من السلاح الايطالى ، وعبروا الحدود وبدت البلاد خاوية بعد هـذه الحملة .

وتخضع المناطق السنوسية اليوم [1] للرقابة العسكرية الايطالية ، اذ لا تزال الطائفة تكن العداوة ، وليست مستعدة للتفاهم ، أو للصلح على الرغم من ندرة التعبير عن مثل هـذا الموقف من الجانب الايطالى . ويقترب عدد كبير من السنوسيين المبعدين — جزء كبير منهم على الأرض المصرية — فى محاولة لابقاء عدم التصالح ، وكونوا « المجلس الوطنى للدفاع عن طرابلس » كأسلوب سياسى للوصول الى تحقيق غاياتهم .

تكررت تعاليم السنوسية عند حركة الاخوان الدركوية Derkauije » التى تفرعت منها المندية . اتخذت هذه الطائفة المدينة الصغيرة «مصراته» مركزا رئيسيا لها ، ومن مبادئها التمسك بالزهد المبالغ فيه ، وطاعة الشيخ الكبير طاعة عمياء ، كما هو عند السنوسيين ، اذ أنه يجب على الاخوان أن يكونوا فى يد الشيخ كجثة فى يد المغسل ، لا ارادة فى أى أمر ولا اعتراض على شىء اطلاقا ، غير أنهم خالفوا السنوسيين بتأييدهم الدعوة الى الوحدة الاسلامية التى نادى بها السلطان عبد الحميد ، فقد كان شيخهم الكبير مستشارا سياسيا مقربا للباب العالى مدة طويلة . أما اليوم فقد ضعفت هـذه الطائفة ولم يعد لهم ذكر .

* * *

كما قام بين أهل السنة دعوات تدعو الى العودة بالاسلام الى رونقه

---

(١) كان ذلك حين صدرت الطبعة الأولى للكتاب بلغته الأصلية .

الأول — كالوهابيين وأمثالهم — كرد فعل ضد الغرب الذى اقتحم البلاد بقوة السلاح ، ظهر بين الشيعة أيضا مذاهب مماثلة ، حملت لواء حركة الاصلاح الدينى فى المجتمع الشيعى ، فدعت الى العودة بالدين الى صفائه الأول •

انفصل الفرع الشيعى الاسلامى — الذى يعد صغيرا من الناحية العددية — عن جماعة السنة فى عصر صدر الاسلام عند ما اندلع النزاع حول منصب خليفة النبى [ﷺ] ، فقد اغتصب الأمويون الخلافة بعد موت الخليفة الرابع على ، زوج بنت محمد [عليه الصلاة والسلام] ، وبعد أن قضوا على أولاده فى موقعة كربلاء ؛ ويعتبر تاريخ هذه المعركة حدا فاصلا يؤرخ به انقسام المسلمين الى شيعيين وسنيين •

ويعتقد الشيعيون اعتقادا دينيا أن الأئمة بعد على — الذى اغتيل أثناء الصلاة فى مكان غير بعيد عن النجف — اثنا عشر اماما على التوالى • وكان محمد المنتصر آخرهم ، تقلد الامامة بعد موت أبيه فى عام ٨٧٣ م (٢٦٠ هـ) ولم يمض وقت طويل على تسلمه هذا المنصب الكبير حتى أشيع نبأ اختفائه ، ويتصل أتباعه به عن طريق واسطة يسمى الباب ، وفى ٩٤٠ أو ٩٤١ مات آخر هذه الأبواب ، الذى قام بمهمة الواسطة ، أو همزة الوصل بين هذا الامام الحى وبين أتباعه • ومن ذلك الحين انقطعت الصلة مع هذا الامام الثانى عشر ، الذى يعتقد الشيعة أنه لم يمت ، بل يحيا روحيا مختفيا فى مكان ما ، ، وسوف يعود يوما يبشر برسالته ، ويخلص أتباعه من الشقاء المضروب عليهم من سلطة الحكام •

وفى بداية القرن التاسع عشر انسابت — بتأثير من النجاح الذى وصل اليه الوهابيون فى شبه الجزيرة العربية — أول موجة للاصلاح الدينى فوق أرض ايران الشيعية ، التى كانت غارقة الى أم شعرها فى جمود شيعى تام • وظهرت على السطح كلمة « عودة الدين الى صفائه الذى كان له فى العصر الأول » ودارت دورتها •

فقد دعا الشيخ أحمد العاصى الذى توفى فى عام ١٨٢٦ الى أن الامام الثانى عشر الذى ينتظر عودته ، يجب أن يتصل بشعبه أثناء فترة

الانتظار عن طريق زعيم روحى مفكر ، فعاد التصور الذى مضى عليه قرون الى الظهور مرة أخرى ، واعتقد الشعب أن هـذا الشيخ وتلميذيه بعد موته ، هم رسل الامام الثانى عشر الغائب : ملأهم بروحه ، وأمدهم من فكره ، ولكن لم يسم أحد من هؤلاء الثلاثة نفسه بابا ، ولم يدع أحد الحق فى أن يرفع نفسه ليتصل شخصيا بالامام المختفى ، بل لم يذكر أحد منهم أنه شعر بالامام شعورا مباشرا •

غير أن الأرواح دفعت الى الحركة مرة ثانية ، فانطلقت محلقة فى الخيـال وعادت الفكرة الأولى الى الظهور • فقد ادعى رجل فى عام ١٨٤٤ م (١٢٦٠ هـ) بالضبط بعد ألف عام من موت آخر باب حيث اختفى الامام الثانى عشر اختفاء قاطعا — أنه على صلة مباشرة مع هذا الامام ، الذى اختفى قبل ألف عام • وأذاع هـذا الداعى الذى يسمى ميرزا على محمد أن عودة الامام منتظرة ، فهو يمهد له الطريق ، ولقب نفسه بالباب : « باب الله » — بالضبط كما لقب الوسطاء السابقون — وصدق الشعب قوله ، فاعتقد بقرب عودة الامام الثانى عشر ، وانطلقت حركة فى ايران سمت نفسها بالبابية ، وهى تشبه حركة قامت فى الغرب قبل ١٠٠٠ عام ، تهيء نفسها لاستقبال المسيح الذى سيعود قريبا •

كثر أتباع هذا الباب الجديد ، وتملكتهم العصبية الدينية ، واستولى عليهم شعور العقيدة المتوهج ، فأصبحوا خطرا على الفكر الدينى الشيعى ، كما كانوا خطرا على رجال السلطة الذين بدأوا فى تعقبهم وفى محاولة القضاء عليهم •

ربط الباب تعاليم الدين — بطريقة ملتوية — باتجاهات الحضارة الغربية فرفض مشروعية الجهاد — وهو الحرب المقدسة فى الاسلام — وعارض الحدود التى شرعها الاسلام ، وحرم الختان (الطهارة) ومنع المرأة من لبس الحجاب ؛ ودعا الى تحريم تعدد الزوجات ، وطالب بانشاء مدارس ، وحمل لواء الدعوة الى تحقيـق كثير من المطالب الثـورية غير ما ذكر •

تطورت أحداث هـذه الدعوة ، اذ وقعت عداوة شديدة بين البابيين والرجعية الحاكمة الذين استندوا فى الحملة ضد البابيين على حاشية الشاه الدكتاتوريين ، فأخذ الصراع صبغة سياسية ، فأطراف الصراع يدافعون عن كيانهم وسلطتهم • اضطهد البابيون اضطهادا مرا ، وأخذوا بالريبة ، واشتد ضغط السلطة عليهم فتعقبتهم الشرطة فى كل مكان ، وأذاقوهم العذاب ، وفى هـذا الجو نمت العداوة بينهم وبين الأسرة المالكة ، وتبلورت عندهم فكرة القضاء عليها ، ليقيموا على أنقاضها مملكة دينية جديدة يكون على رأسها « الباب » ، الذى كلف من الامام المختفى بتمهيد الطريق لظهوره ، ومن هـذا يتبين أن الأهداف السياسية والدينية تشابكت مع بعضها وتقاربت تقاربا يشبه الالتحام ، كما كان الحال عند الوهابيين • وبذلك صارت الدعوة الى المبادىء الدينية وسيلة للوصول الى السلطة •

عندما اندلع الصراع بين البابيين والحكومة ألقى القبض على «الباب» وكان ذلك فى أوائل عام ١٨٥٠ ، وظل فى السجن بضعة أشهر ، ثم نفذ فيه الاعدام مع أحد تلاميذه المخلصين فى ٨ يوليو من هـذه السنة • ويروى أتباعه ومريدوه أساطير حول ما ظهرت من معجزات أثناء تنفيذ الاعدام ، فقد جاء فى احدى روايات هـذه الأساطير أنهم ربطوا الباب مع التلميذ بالحبال مع بعضهما ، بحيث وضع رأس التلميذ على صدر « الباب » ، ثم تلقى حراس أرمنيون الأمر باطلاق الرصاص عليهما ، فأطلقوا أول دفعة وعندما انقشع دخان بارودها رأى الحاضرون ، أن الباب والتلميذ واقفان بدون قيد ، وكانت معجزة ، اذ أن الرصاص أصاب القيد فقط ، الا أن الدفعة الثانية قضت عليهما •

هـذه المعجزة التى حدثت أثناء تنفيذ حكم الاعدام أوقدت فى أتباعه حماسا لا يوصف ، دفع بهم الى حب الاستشهاد فى سبيل دعوتهم ، فسيقت أعداد لا حصر لها الى ساحة الاعدام ، فقيدوا صفوفا على حائط المقصلة ، حيث أعدموا رميا بالرصاص بصورة جماعية ، أما زعماؤهم فكانوا يربطون على فوهة ماسورة الاطلاق •

عين « الباب » خليفته قبل أن يعدم ، فواصل هـذا الخليفة — وهو المسمى ميرزا يحيى — السير بالأتباع على الطريق التى سار فيها سلفه ، وحافظت الحركة تحت زعامته على قوتها فى الصراع القائم بينها وبين السلطة الحاكمة ، وفى عام ١٨٥٢ م دبرت محاولة لاغتيال الشاه ناصر الدين ، غير أنها باءت بالفشل ، وكانت فرصة تلقفتها الحكومة الرجعية وأصحاب السلطة الدكتاتوريين ، فبطشوا بالبابيين بغير رحمة وقادوا حركة اضطهاد ضدهم ، فاستمروا فى تعقبهم فى كل مكان ، ونكلوا بهم جماعات ، فأعدموا وسجنوا وطردوا .. ولم ينس تاريخ ايران هـذه الأحداث ، فقد سجل بالدم أحد الأبواب المظلمة الذى كشف القناع عن استبداد القاجاريين .

اشتدت حملة البحث عن ميرزا يحيى — الباب الثانى — واقتفى رجال الشرطة أثره ، ولكنه استطاع أن يفلت من متعقبيه ، ويهرب الى خارج الدولة . رحل هو وأخوه غير الشقيق بهاء الله ، وجمع من أتباعه الى بغداد واتخذها منفى له .

مارس نشاطه من بغداد فوصل تأثيره الى داخل البلاد الايرانية — رغم أنه يعيش فى المنفى — عن طريق الايرانيين ، الذين يمرون على بغداد فى طريقهم الى أماكنهم المقدسة فى النجف جنوب بغداد . ففى كل عام يخرج من ايران أعداد لا حصر لها من الشيعيين قاصدين تلك الأماكن المقدسة ، فكان ميرزا يلتقى بهم فى بغداد ، وينشر دعوته بينهم فقويت الرابطة بينه وبين أتباعه فى ايران .

أقلق هذا الأمر الشاه ناصر الدين فبعث رسولا يشرح مخاوفه لدى الباب العالى — فميرزا يحيى يعيش فى بلد تحت حماية الباب العالى — الذى أبدى تفهما واستعدادا لتنفيذ رغبات الشاه . أجاب السلطان رجاء الشاه ، فاستدعى ميرزا يحيى الى القسطنطينية ومن هناك أرسله الى « أدريانوبيل Adrianopel » فى الطرف الغربى من المملكة التركية .

حدث انقسام فى هـذا المنفى بين البابيين ، فقد أعلن الأخ غير

الشقيق لميرزا يحيى أن الامام الثانى عشر عاد فى شخصه ، أى أن روح الامام حلت فى جسمه ، فهو الامام نفسه ، وصدقه الناس فاتبعوه ، ووقعت بينهم وبين أتباع أخيه مشاحنات ، وأصبح اخوان العقيدة — الذين نفوا بسبب اشتراكهم فى أفكار وآراء رأت الدولة فيها خطرا على وجودها — أعداء ألداء ، وتطورت العداوة العقيدية الى صراع حقيقى ، اضطر رجال السلطة ازاءه للتدخل وحسم هذا النزاع ، فأرسلت ميرزا يحيى « الباب » الذى سمى نفسه « صبح أزل » — أعنى الفجر الخالد — هو وأتباعه الى جزيرة قبرص ، بينما رحل بهاء الله « الامام العائد » مع أتباعه الى فلسطين ، فاتخذ مدينة « عكا Akkon » منفى له •

يعتبر الصراع بين الاخوة غير الأشقاء حول الزعامة صفحة سوداء فى تاريخ هذه الطائفة المغامرة ، وقد فاقت العداوة بينهم كل وصف ، وتجاوزت كل حد ، اذ اعتبروا أنفسهم أعداء حتى بعد الموت ، ووضع كل فريق الآخر فى قائمة من يجب اغتيالهم ؛ فالقتل عندهم فى هذه الحالة ليس جريمة ، بل من أعمال التقرب الى الله •

مات ميرزا يحيى الذى نفى الى قبرص صغير السن ، وتفرق أتباعه ، أما أخوه غير الشقيق — بهاء الله — فقد مكن لنفسه فى منفاه ، وظل معترفا به من أتباعه شيخا للطائفة ، رغم تحديد اقامته فى عكا مدة تقرب من ثلاثين عاما ، وفى عام ١٨٧٠ حصل على تصريح بمغادرة المكان المحدد اقامته فيه والانتقال الى ضيعة له فى ضواحى المدينة ، على أن يكون تحت رقابة رجال الشرطة ، وبقى فى هذه الضيعة الى أن وافته منيته فى عام ١٨٩٢ فدفن فى مقبرة هناك تحوطها حديقة فيحاء •

ظل بهاء الله طول حياته على اتصال بأتباعه فى ايران ، الذين كونوا أجهزة سرية تنخر تحت عرش المملكة القاجارية — قدر عددهم فى أوائل هذا القرن بحوالى مليون — وقد ظهرت ثمار هذا النشاط السرى فى ثورة عام ١٩٠٨ اذ قام البابيون بدور رئيسى فيها •

انقسم أتباع بهاء الله بعد موته اثر التنازع الذى قام بين ولديه

على الزعامة فى الطائفة ، وامتاز ولده الأكبر عبد البهاء باعتناقه مبادىء تحمل فى طياتها توسيع دائرة الاسلام فكريا وجغرافيا ، فدعا الى اعتبار الكتاب المقدس — كلا جزئيه : العهد القديم والعهد الجديد مصدر توجيه بجانب القرآن • وأسس طائفة انسانية عالمية تدعو الى التسامح بين الأديان الثلاثة ، ووجدت أتباعا لها فى أوروبا وشمال أمريكا ، وأقيمت مراكز للطائفة فى فرنسا وانجلترا وألمانيا • كسبت هذه الدعوة أصواتا كثيرة فى المجتمع الغربى ، وانضم اليها شخصيات بارزة آمنوا بمبادئها وبذلوا الكثير فى سبيل المحافظة عليها ، وأكبر دليل على تأثيرها فى المجتمع ما فعله مستر « برين Bryan » — كان وكيل وزارة فى الولايات المتحدة ، آمن بمذهب البهائية ، وزار قبر بهاء الله فى عكا أكثر من مرة — ترك منصبه الكبير أثناء الحرب لأنه اعتقد أن سياسة ويلسون لا تتمشى مع المبادىء الأساسية للطائفة •

كان للبابية أثر كبير فى ايران — كما كان للوهابية فى المنطقة العربية — ولم يكن فقط فى المجال الدينى بل تعداه الى السياسى والاجتماعى • فمعارضتها للحفنة الحاكمة حكما مطلقا هيأت الجو لظهور اتجاهات التحويل الذى أرادته البلاد الغربية بعد قضائها على الدولة القديمة ، وفى ظل هذا التحويل قربت القومية الاسلامية العالم الاسلامى من حقبة تاريخية جديدة •

* * *